دراسة نفسية لأحلام نجيب محفوظ

دكتور / محمد المهدى

استشارى الطب النفسى



مكتبة الأنجلو المصرية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، إدارة الشئون الفنية .

المهدى ، محمد .

دراسة نفسية لأحلام نجيب محفوظ / محمد المهدى .

ـ ط١. ـ

القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ٢٠٠٧ .

١١٤ ص ،١٧× ٢٤ سم

١- محفوظ ، نجيب ، ١٩١١- ٢٠٠٦

٢- الأدباء العرب   أ- العنوان

رقم الإيداع : ٢٠٦٦٤

ردمك : ٩- ٢٢٧٥ - ٠٥ -٩٧٧   تصنيف ديوى : ٩٢٨,١

المطبعة : محمد عبد الكريم حسان

النـاشـر : مكتبـة الانجلـو المصريـة

١٦٥ شارع محمد فريد

القـاهرة ـ جمهوريـة مصر العربيـة

ت : ٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : anglocbs@anglo-egyptian.com
Website : www.anglo-egyptian.com

إهـــداء

إلى أخى الحبيب الأستاذ إبراهيم عيسى

الذى حفزنى لكتابة هذه الدراسة

حين اقترح تقديم أحلام فترة النقاهة

في أول حلقة من برنامجه القيم

علي قناة دريم ، فقمت بقراءة الأحلام

وكتابة التداعيات حولها

ولكن حالت ظروف سفرى دون تقديمها

مقدمة

منذ سنوات طويلة وأنا مهتم بموضوع الأحلام لذلك وضعت كتابى عن «النوم والأحلام» فى عام ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م وحاولت فيه سبر أغوار هذا الموضوع الغامض والمحير بناءاً على معلومات موضوعية موثقة بعيداً عن الخرافات والزساطير والتصورات البدائية.

وفى نهاية التسعينيات بدأ نجيب محفوظ فى كتابة أحلام فترة النقاهة فرقعت عليها عينى منشورة على أجزاء فى مجلة نصف الدنيا فتتبعتها ووجدت فيها أبعاداً نفسية وجماليات أدبية وفلسفة إنسانية عميقة وممتدة فأغرانى كل هذا بتتبع هذه الأحلام ومحاولة فك رموزها وشفرتها (قدر الإمكان) من خلال عملية تداعى حر حول ألفاظها ومعانيها ومن خلال عملية تفكير موازى تحمل الرسائل وتوصلها لمن يهمهم الأمر .

ولست أدّعى بأننى أقدم تفسيراً للأحلام بالمعنى التقليدى السائد ، فالحلم نص متعدد المستويات ويصدر من طبقات مختلفة فى وعى الحالم ويصل إلى طبقات مختلفة من وعى المتلقى ، لذلك تتعدد التداعيات وتتعدد القراءات للحلم الواحد ، وهذا شأن الأعمال الأدبية والأعمال الفنية الخالدة .

وأنا أدعو القارىء إلى محاولة إعادة القراءة للأحلام وتداعياتها من مختلف زوايا رؤيته وتعددية طبقات وعيه بهذف مزيد من الرؤية والاستبصار .

دكتور / محمد المهدى
استشارى الطب النفسى
محمول : ٠١٢٢٨٨٦٥٣٧
القاهرة : ٠٢/٧٩٥١١٧٣
المنصورة : ٠٥٠/٢٢٣٣٢٩٠
٠٥٠/٢٢٥٠٦٦٦



الفهــرس



البـــاب الأول

إبداعات الخريف عند نجيب محفوظ

(دراسة نفسية للإبداع والعبقرية والحلم)

منهجية قراءة قوانين النفس عند نجيب محفوظ :

يحاول نجيب محفوظ عبر تاريخه الروائي قراءة قوانين النفس البشرية مستخدما مناهج مختلفة لهذه القراءة ، فبدأ بالمنهج التاريخي (التلسكوبي) في رواياته التاريخية ثم تحول للقراءة بالعين المجردة والرؤية الواقعية أو شبه الواقعية في رواياته الإجتماعية ولم يبتعد عن الرمزية طول الوقت خاصة حين كان يريد أن يقول شيئا لا يحتمله الواقع الثقافي أو الإجتماعي أو الديني أو السياسي (أولاد حارتنا وحكايات حارتنا كنماذج) ، ثم انتهي إلي المنهج الميكروسكوبي في أحلام فترة النقاهة . وربما يتواكب هذا مع مراحل التطور الفكري والجسدي معا ففي شرخ الشباب هناك استطاعة للتجوال بخطي واسعة بين مراحل التاريخ وقراءة حركة الإنسان في أطواره الكلية الواسعة والممتدة طولا وعرضا ، أما في خريف العمر وحين تكل العين وتضعف الأذن وتتجمد الخطوات يصبح التأمل داخل النفس (وفي الأحلام) أقرب إلي المنطق حيث لايحتاج هذا التأمل الداخلي إلي مساعدة الحواس أو الجوارح ، والهدف في النهاية واحد وهو قراءة قوانين الحياة والوصول إلي أسرار النفس كما يراها المبدع .

ومن يتتبع إنتاج محفوظ يلمح تلك الرؤية لقوانين النفس والحياة لديه وهو يري تلك القوانين تحكم الحارة (ممثلة في الفتوات كرموز للسلطة وفي أهل الحارة والمستضعفين ثم رموز الثورة والإصلاح فيها) ، وتحكم الدولة بكل كياناتها وديناميات‌ها وصراعاتها (رواية الكرنك وغيرها) ، ويري أيضا أنها تحكم الكون (كما حاول أن يصورها في رواية أولاد حارتنا) ففي رأيه (كما نفهم من كتاباته) أن الديناميات واحدة ، وأن ما يحدث بين البشر في الوحدة الإجتماعية الصغيرة (أسرة سيد أحمد عبدالجواد) هو نفسه مايحدث في الحارة (في روايات متعددة) وهو نفسه ما يحدث في المجتمع الأكبر وصولا إلي الكون الأعظم .

الحلم كوسيلة آمنة للتعبير :

ونجيب محفوظ كدارس للفلسفة كان يمكنه أن يتعامل مع الأفكار مجردة -

كما هي عادة الفلاسفة – ولكنه قرر أن ينتقل إلي المستوي الأكثر تطورا وهو تحويل الأفكار إلي مشاهد وأحداث يقوم بها أشخاص تدب فيهم الحياة ، وهذا التحويل هو نفس ما يحدث في الحلم حيث تتحول المشاعر والدوافع والذكريات إلي أفكار ، ثم تتحول الأفكار إلي مشاهد وأحداث تجري علي يد أشخاص ، وهذا التحول الفني (الرمزي) يستلزم بعض العمليات مثل التكثيف والإسقاط والرمزية والتحويل ، وذلك لكي يتمكن الحلم من اجتياز شروط الرقابة في الجهاز النفسي ، تلك الرقابة التي يهمها المحافظة علي هدوء وسلام النائم أثناء الحلم فلا تسمح بمرور الأشياء الفجة أو شديدة الصراحة والتحدي لقيم النائم ومعتقداته . وهذا بالضبط ماكان يفعله نجيب محفوظ طوال حياته وكأن أدبه كله كان يتبع قوانين الأحلام في النفس البشرية ، فهو يستدعي أحداثا من التاريخ الفرعوني في رواياته المبكرة لكي يسقط عليها أفكارا وآراء من الواقع ، ويستدعي صورا من الحياة الإجتماعية في الحارة المصرية ليكتشف قوانين العلاقة بين الحاكم والمحكوم (الفتوة وأهل الحارة أو بين القوي والضعيف) في وقت لم تكن الظروف السياسية تسمح بالتعبير المباشر عن ذلك ، وليسقط مايريد من مشاعر وأفكار علي شخصياته الشعبية . وحين أراد أن يوسع الرؤية ويصل إلي القوانين التي تحكم الخالق بالمخلوق وتفسر حركة النبوات والرسالات وعلاقة الدين بالعلم ، كتب رواية أولاد حارتنا ، ولكن يبدو أن عمليات الإسقاط والتكثيف والترميز والإزاحة في هذه الرواية لم تكن كافية لذلك أثارت هذه الرواية الكثير من الغضب والقلق لأن رموزها كانت مباشرة نسبيا فكانت بالتالي أشبه بأحلام القلق التي تخرج فيها الدوافع والرغبات صريحة ومتحدية للمنظومة القيمية للنفس وتمر في غفلة من الرقيب فيستيقظ النائم فزعا وربما احتاج نجيب محفوظ في بداية حياته أن يركن إلي عناوين تاريخية كبيرة مثل كفاح طيبة وغيرها وذلك ليلفت نظر القارئ إلي مايكتبه ، أما بعد أن أصبح ملء السمع والبصر فلم يعد يحتاج إلي الصوت العالي والعناوين الضخمة بل كما قال عنه أحد الكتّاب : ليس بحاجة إلي أكثر من أن يهمس فنسمع زعيقه ، ويرمز فنفهم حديثه ، ويصمت فنفسر المسكوت عنه .

ونجيب محفوظ كإنسان يعيش أزمة ممتدة ، أظنها كانت وقود إبداعه وسر دافعيته الهائلة التي لم تنطفئ عبر السنين ، هذه الأزمة تتلخص في وعيه الحاد

والعميق لتفاصيل النفس البشرية وقوانين الحياة ، وهو يعيش الحياة اليومية كمواطن مصري بسيط وكموظف عادي يصطدم طول الوقت بعشوائيات تلك الحياة المصرية (رغم ثرائها) وتناقضات المجتمع (رغم حسن النوايا) واضطرابات القوانين الحاكمة للناس (رغم روعة الشعارات) ، ولا شك أن هذه العشوائيات وهذه التناقضات وتلك الإضطرابات تؤثر بشدة في هذه النفس الرقيقة الدقيقة الحساسة المبدعة فتدفعها إلي الحركة والإستجابة بحثا عن التغيير للأفضل كما يراه صاحب هذه النفس ، وبما أن نجيب محفوظ شخصية مهذبة جدا وليس لديه توجهات صدامية صريحة وعنيفة تجاه السلطة أو تجاه الناس ، لذلك لم يكن أمامه طريق غير فنيات الرواية أو القصة أو الحلم لكي يقول لنا ما يريد دون أن يقطع حبل وده معنا ، وقد استمر يقول ويقول حتي لحظة كتابة هذه السطور وقد بلغ الرابعة والتسعين من عمره ، وأظنه مدفوعا بقوة لايملك دفعها لأن يقول ويستمر في القوالة حتي آخر لحظة في حياته ، والدليل علي ذلك أنه كان يكتب أحلام فترة النقاهة بعد حادث الإعتداء عليه ولم يكن يستطيع التحكم في القلم نظرا لضعف عصب اليد ، وظل يكتب حتي بعد أن ضعف بصره وأصبح لايري مايكتبه وإنما يكتفي بحركة أصابعه ممسكة بالقلم ومحركة إياه فوق صفحات الورق ، وهذا نموذج متفرد للإرادة الإنسانية وللدوافع التي لا تنطفئ وللإبداع الذي لا تخبو جذوته مع تقدم العمر وضعف ا لحواس علي الرغم من أن الرجل قد أحرز شرفا هائلا بحصوله علي جائزة نوبل وأصبح يتربع علي جبل من الإنجازات الأدبية يغريه بالراحة والإستكانة والتفرغ لجني الثمرة ، ولكن هذا ليس دأب أصحاب الرؤي (مهما اختلفنا معهم في رؤاهم) وأصحاب الهمم العالية والقمم السامقة .

والمبدع ليس لديه فضلات أو نفايات فكرية فكل شئ لديه يمكن تدويره والإستفادة منه ، وهذا ما فعله نجيب محفوظ مع أحلامه (سواء كانت أحلام يقظة أم أحلام منام) فقد احتفي بها (عكس ما يفعل سائر الناس حين يعتبرونها أضغاث أحلام) وصاغها فنيا وكساها بخبرته الأدبية الرفيعة وحملها رسائل عميقة هي بمثابة الخلاصة المصفاة والمقطرة من حكمة السنين.

والحلم قدرة علي مزج العقلي بالحدسي التخيلي بالإستشراقي الشفاف بالوجداني بالروحي بالغيبي ، والمحصلة نصا متعدد الروافد والمستويات يتخطي

الحدث العادي المسرود (ذو الأبعاد المحدودة) إلي ما هو أبعد وأعمق وأخصب وأكثر خلودا . وفي أحلام فترة النقاهة نجد أن نجيب محفوظ قد صار في غني عن التفاصيل والحواشي والزوائد فهو يعمد إلي اللب والجوهر مباشرة ويقود المتلقي إلي الحقيقة من أقصر الدروب ، وربما يناسب هذا تلك المرحلة من العمر والتي يشعر فيها الإنسان بقلة ما تبقي من الوقت في هذه الحياة لذلك يصبح الوعي بالوقت حادا وتصبح اللحظات ثمينة وعزيزة ولا يحتمل العمر رفاهية السرد المطول والتثاؤب المتراخي ، لذلك جاءت أحلام فترة النقاهة كرسائل تلغرافية عميقة ونافذة ، ووضعت أسسا لفن أدبي جميل .

والمشاعر في الأحلام تبدو هادئة غير مبالغ فيها (وكذلك شخصية محفوظ) ، وأحيانا تكون أقل بكثير من المتوقع في الموقف ، وأحيانا تكون عكس المتوقع ، وهذا يتفق مع ما قاله فرويد عن المشاعر في الأحلام .

وحين يقول نجيب محفوظ عن أحلامه هي مصدر إلهامي فيها أحلامي الحقيقية التي أراها فهو بهذا يؤكد ويواكب ماعرف علميا عن الأحلام (راجع دراسة في علم السيكوباثولوجي لأستاذنا الدكتور يحيي الرخاوي صديق محفوظ وأحد الحرافيش) بأنها البناء التحتي للتركيب المخي وهي أشد ماتكون لزوما لعمل البناء الفوقي (الوعي والإرادة) ، وأن الأحلام والنوم يشكلان نصف الدورة المخية، وأن ثمة حالة ولاف بين اليقظة والمنام وبين الخيال والواقع وبين الحياة والموت عند المبدع ، وهذا ما نلمحه في أحلام فترة النقاهة فنري دائما ذلك التزاوج بين الحلم والحقيقة وبين الحقيقة والخيال وبين الشخصي والعام وبين الفردي والجماعي وبين الذاتي والموضوعي .

وحين يدفع إلينا نجيب محفوظ بأحلام فترة نقاهته فكأنه يستحثنا أن نحلم بعد أن مرت بنا سحابة غبية معتمة حاولت أن تقنعنا بأنه لا فائدة من الأحلام وأن علينا أن نرضخ للواقع ونسلم به . ويلاحظ في أحلام محفوظ حملها لرسائل إيقاظ وتحفيز ، وبما أنه – كما ذكرنا – رجل لطيف لا يجرح أحدا ولا ينتقد أحدا بشكل مباشر لذلك لجأ للأحلام يقول من خلالها مايريد فليس علي النائم حرج ، وذلك ما فعله من قبل برناردشو حين لجأ إلي الفكاهة والدعابة وأحيانا إلي ادعاء الجنون لكي

يوصل رسالاته النافذة إلي العقل الإنجليزي دون إراقة دماء ودون إثارة أحقاد أو قلاقل ، وهذا أيضا ما فعله غاندي مع الإحتلال الإنجليزي (المقاومة السلمية) وما يفعله عمرو خالد مع حالة الجمود والإنهيار والهزيمة واليأس لدي الشباب العربي المسلم ومع حالة الإستبداد السائدة . وهذا الأسلوب يمكن أن نطلق عليه القوة الناعمة ، وهي قوة تغير كثيرا في المجتمعات دون مواجهة جارحة ، وهي تحمل الكثير من الحب والشفقة نحو المرضي المعالجين .

والحلم يعطي مساحة أكبر من الحرية – خاصة في المجتمعات التي تكثر فيها القيود والمحاذير – لأن الحلم يخترق حواجز الرقابة بغموضه ورمزيته وتحوراته وتكثيفاته وإسقاطاته وإزاحاته ، وربما يكون ذلك موازيا لإبداعات أدبية تاريخية مثل كليلة ودمنة حين لجأ الكاتب لقصص عن الحيوانالت والطيور يحملها ما يريد من رسائل دون أن يواجه عواقب الصراحة المباشرة والجارحة لأوضاع معوجة .

وإذا كان تعبير فترة النقاهة الملحق بأحلام محفوظ ينطبق علي نقاهة محفوظ شخصيا إلا أنه ينطبق علي مجتمعه أكثر ، فنحن بالفعل في فترة نقاهة ، وهي فترة بين حالة المرض وحالة السواء ، ولو لم يتم زيادة مناعة الجسم وتجهيزه لحالة السواء فيمكن أن تحدث انتكاسة ، ولذلك فالإنسان (والمجتمع) في حاجة إلي استعادة الوعي ، والحلم أحد وسائل استعادة الوعي واستعادة العافية واستعادة الحرية واستعادة الأمل .

مثلث الحرية فى عالم الإستبداد (الإبداع الأدبى والجنون والحلم):

يبدو أن ثمة علاقة بين هذا الثلاثي فالمجنون تتمثل فيه عمليات انفلات التفكير وجموح العقل أو غيابه وفيضان الخيال وحضوره وفجاجته ، وكسر المألوف وتجاوز حدود العرف السائد ، وتحريك الثوابت وتعتعة الجمود ومراجعة البدهيات والمسلمات وتجاوز حدود الممكن ، وإثارة الرغبات والأمنيات دون حدود ، وكذلك يحدث في الحلم ، وهي حالات يتوق الأديب لأن يصل إليها ويستمد منها مواد إبداعه ، فحالة اللاعقلانية في الجنون والحلم والإبداع الأدبي تعطي غطاءا مناسبا للتعبير الحر العابر للقيود والحواجز والدفاعات النفسية والإجتماعية والدينية

والسياسية. والحلم جنون عابر نشفي منه عندما نستيقظ ، وهو محاولة للتنفيس الصحي ومحاولة لحل الصراعات ومحاولة للتوليف بين المتناقضات داخل النفس وخارجها .

والحلم (كما الجنون والإبداع) لايلتزم بقانون ، ويتجاوز حدود الزمان والمكان والعقل والمنطق السائدين ، وهو يعطي فرصة لمستويات أكثر بدائية وفي ذات الوقت أكثر أصالة لكي تنشط وبالتالي فالحلم ينقذنا من الرؤية أحادية البعد والتي نتورط فيها في عالم اليقظة المحدود لكي يدخلنا في رؤية متعددة الأبعاد والمستويات ، وربما هذا هو مايجعلنا نستغرب أفكار الحلم وخيالاته ومشاعره ونجدها غير مألوفة لنظرتنا المنطقية الأحادية في اليقظة .

وصور الأحلام بدائية مثل رسومات الأطفال (وكبار الفنانين) تنزع إلي الطبيعة التركيبية فتمزج الذات بالموضوع والخيال بالواقع والإنسان بالحيوان ، فيمكن أن يطير الإنسان وتتكلم الطيور وتمتزج شخصيتين في شخص واحد ، أو نري جسد حيوان له راس إنسان أو العكس ....وهكذا .

خلاصة الأمر أن الحرية في الحلم (كما الجنون والإبداع الأدبي والفني) واسعة (وإن لم تكن مطلقة) ، ولهذا كان يطمع فرويد (صاحب كتاب تفسير الأحلام) في الإطلالة علي محتوي اللاوعي (الفوضوي المتمرد الأصيل المؤثر) من خلال نافذة الأحلام . وحتي بدون الأحلام حاول من خلال التداعي الحر الذي يتتبع سلسلة الأفكار فيصل إلي جذورها .

والفنان السريالي حاول أن يقلد الحالم والمجنون بأن يكون حرا يسقط علي لوحته مايشاء دون اعتبار للمنطق والسببية والعلاقات المنطقية بالأشياء علي اعتبار أن المنطق السائد ربما لايكون هو الأفضل دائما وأن ماليس كذلك ربما يكون أكثر قيمة أو علي الأقل جدير بالرؤية والإستكشاف . يقول الدكتور شاكر عبدالحميد في كتابه الأدب والجنون (١٩٩٣) : إن موضوع التداعي الحر والترابطات المفككة والمنطلقة كظاهرة وكأسلوب للدراسة والعلاج هو موضوع مشترك في دراسات الأحلام ودراسات المرض العقلي ، وفي عديد من الإتجاهات الفنية المعاصرة ، وبصفة خاصة السريالية . إن العقل ارتبط دائما عبر التاريخ بالمنطق والنور

والوضوح والفهم والنهار والطمأنينة ، بينما ارتبط الجنون وكذلك الأحلام بالفوضي والظلام والغموض والليل وعدم القابلية للفهم والخوف .

وقد استفاد نجيب محفوظ بالحلم والإبداع الأدبي لكي يحصل علي أكبر مساحة ممكنة لحريةالتعبير خاصة أنه عاش في ظروف تكثر فيها المحاذير والخطوط الحمراء ، فقام بعملية توليف بين القديم والحديث وبين الشخصي والعام وبين شقاوة الصغار ووقار الكبار وبين ذات الطفل وذات الراشد وذات الناضج (طبقا لرؤية إريك برن) ، وبين الذات الإجتماعية والذات المثالية والذات الحقيقية (طبقا لرؤية كارين هورني) ، وبين النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة والنفس المطمئنة (طبقا للرؤية الدينية) ، وبين شقاوة الصغار ووقار الحكماء .

علاقة محفوظ برموز السلطة ورموز الدين :

تبدو علاقة محفوظ برموز السلطة والدين في أحلامه علاقة غير مريحة دائما فهي تتسم بالريبة ، وهو دائما يري هذه الرموز في غير موضعها الإفتراضي ، فالسلطة غاشمة وغير أمينة ومتحالفة مع الفساد وتمارس اللصوصية تحت قناع حماية الناس وحماية ممتلاكاتهم ومصالحهم ، والأشخاص ذوي المظاهر الدينية في الأحلام خادعين ومشوهين ومتقلبين ويؤكدون فكرة التدين الكاذب أو الكذب المتدين . وربما يرجع هذا لخبرته الحياتية ببعض رموز السلطة السياسية والدينية ، أو يرجع لنشاط ذات الطفل لديه كمبدع والتي تريد مزيدا من الحرية والإنطلاق ولكنها تخشي دائما ذات الوالد (صاحب قانون الصواب والخطأ والحلال والحرام والأمر والنهي) . وهو يري دائما أن السلطة (سياسية أو أمنية أو دينية أو اجتماعية أو أبوية) تظهر غير ما تبطن ، وأنها ليست بالوقار والإحترام والأمانة الظاهرين . ويتضح هذا في أكثر من حلم من أحلامه ، ولا تتوقف هذه الصورة علي الأحلام بل قد تبدت بصورة واضحة في نظرته للذات الوالدية في شخصيته الشهيرة سيد أحمد عبدالجواد تلك الشخصية التي تظهر الوقار والحزم والقوة في الظاهر في حين أنها في الباطن شخصية نزوية هزلية . وربما تمثل هذه النظرة تقييما حقيقيا موضوعيا للسلطة لديه في كل صورها ، وربما يكون ذلك نوع من العدوان عليها رغبة منه في إزاحتها من طريق إبداعه وحريته .

وفي حكايات الحارات (في كثير من رواياته) كان الفتوة يحكم الحارة ويتحكم فيها بمنطق القوة لا بمنطق العدل أو الرحمة ، ويستبد بأهلها ويذلهم إلي أن يفيض الكيل وتظهر قيادة جديدة متمثلة في أحد أبناء الحارة الشجعان والذي يتجاوز حالة الرعب والحذر ويهزم الفتوة (الذي يظهر ضعفه وخواؤه أثناء المواجهة الحقيقية رغم ظن الجميع أنه لايهزم أبدا) ، ثم ينصب نفسه (أو ينصبه الناس) فتوة جديدا ، يبدأ عادلا متواضعا مثاليا ومحبا للناس وعطوفا عليهم ، ثم يأخذه بريق السلطة بشكل تدريجي إلي أن يصبح أكثر ظلما من سابقه ، ويساهم أهل الحارة (بوعي أو بغير وعي) في إحداث هذا التغيير في نفس الفتوة الجديد من خلال نفاقهم ومداهناتهم وسكوتهم وخوفهم إلي أن يدفعوا الثمن كما دفعوه من قبل وكما يظلون يدفعونه دائما ، وكأنهم في حاجة دائمة لصنع طاغية يعيش معهم دورة طغيان تنتهي نهاية درامية لتبدأ دورة طغيان جديدة بسيناريو مختلف ونهاية واحدة . وهكذا كان يري محفوظ السلطة السياسية والأمنية معا في صورة فتوة الحارة ويسقط عليها كل معاني الظلم والإستبداد والقهر . أما موقفه من السلطة الدينية والذي اتضح في بعض أحلامه واتضح أكثر في رواية أولاد حارتنا فقد رآها سلطة بشرية غالبا مستترة بشعارات دينية ولكنها تبحث عن مصالحها الذاتية في النهاية ، وقد تنبأبسقوطها لحساب العلم «عرفة» في الرواية . باختصار هو لايشعر بالإرتياح تجاه أي سلطة سواء كانت سياسية أو أمنية أو دينية ، وهذا لايمنعه من قبولها كأمر واقع علي مضض وإبداء الخضوع التكتيكي حيالها ربما اتقاءا لشرها . وربما يزداد فهمنا لذلك إذا عرفنا الواقع الموازي لكتابة مثل هذه الأعمال حيث كانت مصر تحت الإحتلال الإنجليزي ثم بعد ذلك تحت القبضة السلطوية القاهرة والمستبدة لرجال الثورة ، ولم تكن هناك – في معظم الأحوال– فرصة للتعبير الحر عن أفكار الناس ومشاعرهم تجاه هذه السلطة خاصة في مرحلتها الثورية المستبدة والمتشككة وغير المنطقية . هذا عن السلطة السياسية التي كتب في ظلها الكثير من أعماله وأسقط علي أبطال رواياته كل مايريد أن يقوله دون أن ينتبه رجال السلطة ، أما من ناحية السلطة الدينية فقد كانت هناك موجة المد الإشتراكي واليساري القادمة من الثورة الشيوعية في روسيا ، والتي تأثر بها عدد من المثقفين المصريين والعرب، وكانت هذه الموجة تلوح بانتشار العدل وسقوط الرأسمالية المستغلة وعلو

شأن الطبقات العاملة المطحونة ، وانهيار التركيبات السياسية والدينية القائمة ليحل محلها تركيبات وتنظيمات عمالية وشعبية جديدة تنشر المساواة والعدل . هذه الصورة كانت تداعب خيال كثير من الكتّاب والفنانين في هذه الفترة (خاصة ذوي الميول المثالية) وتدفعهم للثورة ضد كل السلطات القائمة (السياسية والدينية علي وجه الخصوص) أملا في تطبيق النظرية الجديدة التي صاغها كارل ماركس وحاول لينين وستالين تطبيقها وتصديرها خاصة إلي دول العالم الثالث التي ترزح تحت نير القهر والإستبداد باسم الحاكم أو باسم رجال الدين . علي هذه الخلفية نستطيع أن نفهم رواية أولاد حارتنا وبعض أحلام فترة النقاهة بما فيها من تكثيف ورمزية وإزاحة وإسقاط .

وحين انهارت هذه الفلسفة الإشتراكية (أو الشيوعية) ، أو علي الأقل انهارت تطبيقاتها ، لم يكن من السهل علي من صدقوها أواعتنقوها أو أيدوها أو أعجبوا بمثالياتها ، لم يكن من السهل عليهم التراجع عن كل مبادئها ، فقد كانت بالنسبة لهم أحلام مرحلة من مراحل عمرهم لايستطيعون التنكر لها ، وكانت أعمالهم التي أنجزوها في ظل هذه الفلسفة بمثابة أبناء لهم ، ربما لايعجبهم بعض سلوكهم الآن ولكنهم لايملكون التبرؤ منهم فهم – رغم عيوبهم – يعتبروا أبناءهم . وهذا ربما يساعدنا علي فهم موقف نجيب محفوظ من رواية أولاد حارتنا فهو لايتبرأ منها (كما كان يحلم البعض أو يتمني) ، وفي نفس الوقت لايفخر بها (علي الأقل علنا) ولا يعيد نشرها . لقد كان استطرادنا حول هذه الرواية بالذات مقصودا لسببين ،أحدهما ما صار حولها من لغط (وهذا لايهمنا في دراستنا الحالية)، وثانيهما (وهو الأهم لدينا الآن) هو أن هذه الرواية بمفهوم الأحلام توازي أحد أحلام القلق والتي لم يستطع الجهاز النفسي للحالم استخدام أساليب الترميز والتكثيف والإزاحة والإسقاط بالقدر الكاف لتمرير فكرته أو مشاعره تجاه شئ ما فخرجت هذه الأفكار أو المشاعر صريحة نسبيا وقريبة من لغة الواقع لذلك أثارت قلقا دينيا واجتماعيا عاني منه محفوظ كثيرا ، وهي – كما قلنا توازي حلم القلق (الكابوس) الذي يفشل في التخفي والتنكر فيقتحم الوعي صريحا متحديا فجّا فيحدث حالة من القلق تزعج النائم وتجعله يستيقظ في حالة هلع واضطراب . ومن هنا تبدو رواية أولاد حارتنا ينقصها الحبكة الفنية التي تسمح بتوصيل فكرة معينة

دون أن تستثير عنفا واضطرابا ، لأنها لو استثارت عنفا واضطرابا ومقاومة ودما مسفوحا كانت أقرب للمقال أو المنشور السياسي (هذا من منظور الحلم والذي قد يختلف عن المنظور الأدبي والذي منح بسببه محفوظ جائزة نوبل) .

العلاج بالأحلام :

وأحلام فترة النقاهة هي بمثابة محاولة علاجية للكثير من السلبيات والأفكار والتصورات السائدة إضافة إلي كونها رؤية فلسفية للإنسان والحياة متعددة الجوانب والمستويات ، وهذا الموقف الإيجابي من الأحلام (كوسيلة للرؤية ووسيلة للتغيير) يعيد إلينا موقف المصريين القدماء من هذا الموضوع حيث كانوا يحتفون بالحلم ويحترمونه لدرجة أنهم أقاموا معابد للنوم في جزر فيلة وكان يشرف عليها الطبيب أمحوتب (أول طبيب معروف تاريخيا) وكان كاهنا وطبيبا للملك زوسر الذي بني أهرامات سقارة ٢٩٠٠ سنة قبل الميلاد ، وكان الناس يحضرون إلي معابد النوم ليناموا في هذا الجو المفعم بالقداسة فيحلمون ثم يقوم الكهان بتفسير هذه الأحلام بطريقة بنائية تبعث الأمل والحياة في نفوسهم ، وبالتالي كان الحلم عند قدماء المصريين ظاهرة إيجابية بنائية شفائية تؤدي إلي تحسين حياة الإنسان في يقظته . ثم جاء علماء العرب والمسلمين فكان لبعضهم (مثل المازري والقرطبي والحافظ ابن حجر العسقلاني – راجع كتاب الأخير الرؤي والأحلام) رؤية شاملة ومتعددة المستويات للأحلام حيث عزوها إلي ثلاثة مصادر :

١– **الأخلاط** : وهي تقابل بلغة العصر الحديث التركيبات الكيميائية في المخ والجسد وما يتصل بها من مؤثرات فسيولوجية

٢– **حديث النفس** : وهذا ما أفاض فيه علماء النفس المحدثين وفي مقدمتهم فرويد .

٣– **الإدراكات** : ويعنون بها الرسائل الغيبية القادمة من العوالم الأخري التي لا ندركها في حالة يقظتنا وكانت هذه الرؤية الشاملة والمتعددة المستويات للأحلام قفزة علمية هائلة لو كنا قد تتبعناها وبحثنا علي ضوئها ، فهي نظرة أشمل من تلك النظرة الفسيولوجية التي رأت الأحلام مجرد ظاهرة

فسيولوجية ، وأعمق وأشمل من تلك النظرة الفرويدية التي قصرت الأحلام علي حديث النفس ورغباتها واحتياجاتها .

وهذا الموقف الإيجابي كان يقابله موقفا سلبيا ساد في أوروبا إبان العصور الوسطي حيث كانوا ينسبون الأحلام إلي الشياطين وإلي الأرواح الشريرة مما حدا بهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلي اللجوء لطريقة إيقاظ النائم حين يشعرون أنه يحلم حتي ينقذونه من الحلم . وهذه النظرة السلبية للأحلام تعود لتطل علينا من جديد في مجتمعاتنا العربية حيث نجد كتابات مختزلة عن الأحلام تعيدها إلي الفكر الخرافي مرة أخري ولكن مع إضافي بعض المصطلحات الدينية يتستر خلفها هذا الفكر لكي يقبله العامة .

العمر والإبداع .. نجيب محفوظ كنموذج :

نجيب محفوظ قد تجاوز الرابعة والتسعين من عمره ومازال يبدع ، وإبداعه في هذه المرحلة غاية في التجريد والمرونة والعمق وسرعة الإيقاع ، وهذه ظاهرة تستحق الدراسة والتأمل علي المستوي العلمي والأدبي والإنساني ، فعلي المستوي العلمي كيف نتصور هذا الإبداع بتلك المواصفات في وجود مرض السكري المزمن وتصلب شرايين المخ بسبب السن وبسبب السكري وضعف البصر وضعف السمع وغيرها من المشاكل التي نتوقع علميا أن تؤثر علي كفاءة المخ خاصة في وظائفه العليا التي تقوم علي التجريد والإستنباط والتفكير الرمزي متعدد ا لمستويات والإخراج الجمالي الأدبي للفكرة في أزهي صورها وبإيقاع سريع يكاد لايبلغه شاب في العشرين وبروح مرحة وساخرة وموجهة وموقظة . وماهو سر الدافعية التي لا تهدأ ، بل تدفع دائما نحو الإبداع في وقت كلّ فيه الجسد وضعفت كل الحواس حتي أنه كان يكتب ويديه مضطربة الحركة بسبب إصابة عصب اليد في الحادث الذي تعرض له ، وهو الآن ما زال يكتب علي الرغم من أنه لا يري ما يكتبه بسبب ضعف حاسة البصر . وعلي المستوي الأدبي ننظر ونتعجب : كيف يستطيع شخص قد تجاوز التسعين أن ينشئ فنا أدبيا جديدا وهو الأحلام يسقط عليه كل هذا الجمال الأد بي وكل تلك المعاني العميقة ؟ . وعلي المستوي الإنساني لو استخدمنا حسابات البشر العادية لتساءلنا ببلاهة : وماذا يريد الرجل أن يقول بعد الذي قاله وماذا يريد

أن يبلغ بعد كل مابلغه وماذا يريد أن يأخذ بعد كل ما أخذ ؟.........

كل هذه التساؤلات وغيرها تأخذنا إلي مسألة علاقة الإبداع بالعمر وعلاقة العمل عموما بالمرحلة العمرية خاصة وأن لدي ا لكثيرين منا تصورات بأن الإنسان إذا تجاوز الأربعين فعليه بالراحة والإستكانة والجلوس انتظارا للموت ، وهذا التصور ربما يؤدي إلي حالة من الإكتئاب المزمن تظهر أعراضه في صورة بطء في مسار الحياة والتفكير وحالة من العدمية التي تفقد معها قيمة ومعني ومذاق الأشياء يصاحبها سكون في أحد الأركان بدعوي الحكمة والوقار وأحكام السن ، وجمود في الرؤي والأفكار يوقف عجلة الحياة الشخصية أو العائلية أو الإجتماعية أو كلها جميعا. لقد قام جورج بيرد عا م ١٨٧٤ م بدراسة شاملة عن ا لإبداع وعلاقته بمراحل العمر فوجد أن ٧٠٪ من أروع الأعمال العالمية قد أنجزها أشخاص تقل أعمارهم عن الخامسة والأربعين ، وأن ٨٠٪ من تلك الأعمال قد أنجزها أشخاص تقل أعما رهم عن ا لخمسين ، ووجد أن فترة الذروة المطلقة في السيرة المهنية والإبداعية تقع بين الثلاثين والخامسة والأربعين من العمر . وبناءا علي هذه النتائج قام جورج بيرد بتقسيم عمر الإنسان إلي عقود أطلق عليها أوصافا تتناسب مع أهمية قيمة العطاء والإبداع فيها وهي كالتالي :

من ٢٠–٣٠ العقد البرونزي ، ومن ٣٠–٤٠ العقد الذهبي ، ومن ٤٠–٥٠ العقد ا لفضي ، ومن ٥٠–٦٠ العقد الحديدي ، ومن ٦٠–٧٠ العقد القصديري ، ومن ٧٠–٨٠ العقد الخشبي .

ثم قام عالم آخر يدعي ليمان بدراسة عدد كبير من المبدعين فوجد أن ذروة الإبداع تقع بين سن ٣٥ و٣٩ . وفي دراسات أخري تبين أن ذ. وة الإبداع تقع حول سن ٤٥ بزيادة أو نقص ٥سنوات .

ومن الأبحاث السابقة نلحظ نقص الإبداع مع تقدم العمر ، ولكن هيفيل لاحظ عودة القوة الإبداعية للظهور بين سن ٨٠ و٨٥ سنة وقد يرجع ذلك إلي تذكر أيام الشباب في السنوات الأخيرة من العمر مع استعادة روحها الإبداعية لدي بعض الأشخاص ، إضافة إلي استفادة المبدع من خبرته الطويلة وامتلاكه لقدرات تمكنه من التعبير بشكل مؤثر ، أو أن تكون الكتابات المتأخرة هي عبارة عن مشروعات

بدأت في عقل المبدع وهو في سن صغير ولكن انشغاله بمشروعات حياتية أخري جعله يؤجلها إلي هذه المرحلة من العمر ليصوغها فقط بأسلوبه الذي اكتسب نضجا مع السنين . وقد أشار نجيب محفوظ إلي هذه العودة في أحد أحلامه وهو يصف عودة الفتاة إليه في الفندق .

وقد وجد هيفل أن ٦-٢٠٪ من الإنتاج الكلي للمبدع قد يأتي في سبعينات العمر . ويؤيد هذا الرأي عدد من الأمثلة الحية نذكر منها : قصة البؤساء التي كتبها فيكتور هوجو في سن الستين ، ورواية الإخوة كرامازوف والتي كتبها ديستويفسكي في سن ٥٩ ، والإلياذة التي يقال أن هوميروس كتبها بعد أن تجاوز المائة سنة . ولا ننسي برناردشو الذي كتب الكثير من أجمل أعماله بعد أن تجاوز الثمانين من عمره .

إذن نستطيع القول بأن أحلام فترة النقاهة هي بمثابة دفقة إبداع جديدة بدأت عام ١٩٩٨ (بعد محاولة الإعتداء على نجيب محفوظ وإصابته بـ ٤ سنوات) حيث كان فرحا بعودته للكتابة بيده ، فنشطت لديه ذات الطفل مرة أخري حية متدفقة فرحة بالملكة المستعادة بعد الإصابة وكأنها حديثة عهد بها فطوعتها لإخراج ما تبقي من تراث إبداعي يعتمد علي قراءة الداخل (الأحلام) أو استقرائه بعد أن تعذرت قراءة الخارج (الواقع) بسبب ضعف الحواس وتعذر الحركة.

وهناك عاملين مهمين لعبا دورا في استمرار التد

فق الإبداعي لنجيب محفوظ حتي هذه السن (إضافة لكل ما سبق) ، العامل الأول هو انتظامه في لقاء أصدقائه من القدامي والمحدثين وانتظامه في التجوال في الأحياء المصرية القديمة والحديثة (لوقت قريب قبل أن يفقد القدرة علي ذلك) ، وكان ذلك يعطيه الفرصة للربط بين الماضي والحاضر فضلا عن إبقاء الذاكرة ملأي بالأحداث والذكر يات ، والحفاظ علي النفس في حالة تكامل وتواصل ونشاط و واستعادة الطفولة والصبا والشباب في أثواب جديدة في كل مرحلة من مراحل العمر العقلي والإبداعي . أما العامل الثاني فهو الوجه الآخر لشخصية نجيب محفوظ وهو كونه موظفا عاش حياته الوظيفية الحكومية الروتينية ملتزما بالحضور والإنصراف والعمل منذ لحظة الدخول وإلي لحظة الإنصراف ، وهو يسلك

نفس السلوك في رحلة حياته فهو موظف في هذه الحياة وعليه أن يعطي من لحظة وعيه بحضوره في الحياة إلي لحظة انطفاء هذا الوعي ، وهذا يجعلنا نتوقع استمرار عطائه الأدبي حتي آخر قطرة في وعيه ، فالوعي بالنسبة له مناط المسئولية وانتهاء الواجبات الحياتية يحدده خالق النفس وخالق الوعي في اللحظة التي يختارها ولا يحددها الموظف الملتزم المطيع لقوانين الحياة والموت .

****

الباب الثانى

تداعيات أحلام فترة النقاهة

(فتح الرسائل السرية لنجيب محفوظ)



تنويه :

نود أن ننبه القارئ الكريم إلي أننا لن نقوم بتفسير أحلام فترة النقاهة للأستاذ الكبير نجيب محفوظ ، وإنما نقوم بقراءة الحلم ثم نترك الأفكار تتداعي بحرية (وأحياناً بدون ترابط) حول رموز الحلم ، وبما أنها تداعياتنا الشخصية فيمكن أن تتعدد حول الحلم الواحد ، ويبقي الحلم نفسه قابلاً للمزيد من الرؤي ، وهذه هى عظمة الأدب الرمزى وعظمة ما كتبه نجيب محفوظ .

حلــــم ١

أسوق دراجتى من ناحية إلي أخري مدفوعا بالجوع باحثا عن مطعم مناسب لذوى الدخل المحدود ودائما أجدها مغلقة الأبواب ، وحانت منى التفاتة إلي ساعة الميدان فرأيت أسفلها صديقى فدعانى بإشارة من يده فملت بدراجتى نحوه وإذا به علي علم بحالى فاقترح على أن أترك دراجتى معه ليسهل على البحث فنفذت اقتراحه وواصلت البحث وجوعى يشتد وصادفنى فى طريقى مطعم العائلات فبدافع من الجوع واليأس اتجهت نحوه علي الرغم من علمى بارتفاع أسعاره ورآنى صاحبه وهو يقف فى مدخله أمام ستارة مسدلة فما كان منه إلا أن أزاح الستارة فبدت خرابة ملأي بالنفايات فى وضع البهو الفخم المعد للطعام فقلت بانزعاج .

ماذا جري ؟

فقال الرجل :

أسرع إلي كبابجى الشباب لعلك تدركه قبل أن يشطب ، ولم أضيع وقتا فرجعت إلي ساعة الميدان ولكننى لم أجد الدراجة والصديق .

تداعيات حلم ١

(الجري وراء السراب)

نتعجل الخطي فى حياتنا ونلهث باحثين عن إشباع احتياجاتنا الأساسية الملحة ، ولكن الظروف والأحوال المحيطة بنا لا تعطينا هذا الإشباع ، وعقارب الزمن تطاردنا والعمر يمضى ولدينا الكثير نريد تحقيقه قبل أن نترك هذه الحياة ولدينا أطماعاً ورغبات وآمالاً وطموحات ، قد تكون مشروعة ، ولكن الحياة ليست دائماً عند توقعاتنا .

قد ينصحنا البعض بتغيير طريقة التفكير وطريقة البحث وقد ينصحنا الأصدقاء بالتمهل فى البحث وترك العجلة (الدراجة) ، فنستجيب لنصائحهم علنا نجد ما نريد.

ويحدونا الأمل فى أن نبحث عن أسرة ونكون عائلة (مطعم العائلات) ننعم فيها بالطعام الدافئ والعيش الوثير ، ولكننا نكتشف فى لحظة أن هذا أيضاً سراب (الخرابة خلف الستار) .

تعود إلينا النصيحة من آخرين بأن نحاول العودة إلي الشباب (كبابجي الشباب) علنا ندرك بعض ملذاته قبل أن يفوتنا القطار ، ولكننا نكتشف أن القدرة تخوننا (فقد ضاعت الدراجة) وأننا نعانى الوحدة (بعد اختفاء الصديق) .

حلـم ٢

دخلنا الشقة .. الفتاة فى المقدمة وأنا فى أثرها والبواب يتبعنا حاملا الحقيبة . الفتاة علي صلة بى مؤكدة وكأنها غير محددة . تركنا ترتيب الأشياء ودلفت إلي الشرفة المطلة علي البحر سابحا فى آفاقه غير المحدودة منتعشا بهوائه الرطيب منتشيا بهديره المتقطع . وإذا بصرخة تنطلق من الداخل فهرعت نحوها فرأيت الفتاة منكمشة مذعورة والنار تشتعل فى أعلي الباب . وقبل أن أفيق من الصدمة دخل رجل صلب الملامح كأنما قدت من صخر وبإشارة من يده انطفأت النار وتحول ذاهبا وهو يقول :

ربما انقطعت المياه بعض الوقت . وغمرني الارتياح فلم أبال بشيء ، غادرت الحجرة قاصدا السوبر ماركت لأبتاع بعض التموين المناسب ، ولما رجعت وجدت باب الشقة مفتوحا والبواب واقفا فدخلت أنا الحجرة قلقا فوجدتها عارية إلا من بقجة منتفخة بالملابس ملقاة علي الأرض وذراع بيجامتي يتدلي من فتحة رابطتها ولا أثر للفتاة فسألت :

ماذا جري؟

فأجابني البواب :

حضرتك أخطأت الطريق وهذه ليست شقتك . فأشرت إلي ذراع البيجاما وقلت :

هذه بيجامتي .

فقال الرجل بهدوء :

يوجد من نوعها آلاف في السوق

وملت إلي الاعتقاد بالخطأ متذكرا أنه توجد ثلاث عمارات متشابهة في صف واحد وهبطت السلم بسرعة وفي الطريق رأيت الفتاة تسير في طرفه المفضي إلي ميدان مكتظ بالسيارات والبشر فجريت نحوها حتي أدركها قبل أن تذوب في الزحام .

تداعيات حلم ٢

(الدنيا .. أحلامها ..ملذاتها .. حرمانها)

ندخل الحياة ونحن نحلم أحلاماً رومانسية جميلة وننتظر اللحظة التي تتحقق فيها ، وبينما نحن في انتظار رشف الرحيق وقطف الثمرة والوصول إلي قمة اللذة والاستمتاع بحرارتها ودفئها ، فجأة نجد من يطفئ كل هذا ويوقف سريان تيار الحياة ويهددنا بالحرمان (انقطاع المياه) ، ثم ننصرف إلي شئوننا اليومية العادية (السوبر ماركت)، ونعاود الحلم مرة أخري ، فنرجع باحثين عن الحب الأول ولكننا

نجد الدنيا قد تغيرت والناس تغيرت ولم يبق منا ولا منهم إلا الأطلال ، ومع هذا لا نكل ولا نمل ونظل نلهث فى الحياة باحثين عن حبنا وأحلامنا قبل أن يضيعا فى الزحام ، والأمل يحدونا دائماً فى أننا سنستعيد ما فات .

حلـم ٣

هذا سطح سفينة يتوسطه عامود مقيد به رجل يلتف حوله حبل من أعلي صدره حتي أسفل ساقيه وهو يحرك رأسه بعنف يمنة ويسرة ويهتف من أعماقه الجريحة .

متي ينتهى هذا العذاب وكان ثلاثتنا ينظرون إليه بإشفاق ويتبادلون النظر فى ذهول وتساءل صوت :

من فعل بك ذلك ؟

فأجاب الرجل المعذب ورأسه لا يكف عن الحركة

أنا الفاعل

لماذا؟

هو العقاب الذى أستحقه

عن أى ذنب؟

فصاح بغضب

الجهل

فقلت له :

عهدنا بك ذو حلم وخبرة

جهلنا أن الغضب استعداد فى كل فرد

وارتفع صوته وهو يقول :

وجهلت أن أى إنسان لا يمكن أن يخلو من كرامة مهما يهن شأنه

وغلبنا الحزن والصمت .

تداعيات حلم ٢

(تناقضات البشر)

يختلف البشر كثيراً حين تراهم فى لقطات مختلفة ومن زوايا متعددة .حاول أن تفعل هذا مع نفسك .. لكن ذلك سيتطلب شجاعة خاصة ويتطلب رؤية متعددة الأبعاد (وكأن هناك ثلاث أشخاص لهم ستة عيون ينظرون إليك من زوايا مختلفة) .. إذا نجحت فى وضع هذه الكاميرات (العيون) فى مواضع مختلفة وبدأت العمل فستذهلك النتائج .. ستري فى لقطات أنك عالم راسخ .. وستري فى أخري أنك جاهل غرير .. وفى لقطات ستبدو عزيزاً كريماً .. وفى لقطات أخري ستظهر مهيناً ذليلاً .

أراك الآن تتألم من هول هذه اللقطة ولسعها .. زلزالاً يهز ثوابتك وقناعاتك .. أقنعة تتساقط .. تهوى الذات الاجتماعية وتتبادل الظهور مع الذات المثالية ثم تظهر أحياناً الذات الحقيقية فجة متحدية ومهددة .

يتواري القناع الطيب المسالم ليظهر من خلفه الظل المليء بالأفاعى والعقارب .. تتبادل الغزلان الظهور مع السباع .. يظهر لقمان الحكيم أحياناً .. وأحياناً أخري يتصدر الصورة أبو جهل وأبو لهب ..

لم تكن تتصور كل هذا الزخم من الجوانب والمستويات المتراكمة والمتناقضة .. رحت تصرخ ألماً وندماً وحيرة .. لم تعد تحتمل ذاتك فى صورتها الفجة الغريبة علي وعيك .

والآن لكى تستطيع أن تكمل مشوار حياتك وأن تتقبل ذاتك وحياتك قم بإطفاء أنوار هذا التصوير الخارق الحارق النفاذ وأسدل الستار علي الكثير مما لا يعجبك رؤياه ، واستدع دفاعاتك المعتادة وانصب المتاريس أمام أى اختراق رؤية لا تحتملها .. وافتح دولابك مرة أخري لتختار منه الأقنعة التى تعجبك .

لا يخلو عاقل من لحظات طيش .. ولا يخلو ساذج أو جاهل من ومضات حكمة .. ولا ينجو حليم من لحظات غضب وطيش .. ولا يحرم طائش من مواقف

رزينة .. لم يحرم الله امرأة دميمة من مواطن جمال .. ولا تخلو امرأة رائعة الجمال من علامات قبح .. ولا تكتمل لحظة صفاء من بعض مكدرات المزاج .. ولا تخلو لحظة ألم وضيق من مشاعر انفراج .. فى الاشياء ، وفى الإنسان سوف ترى الشيء ونقيضه .. فلا تعجب .

حلم ٤

بهو مترامى الأركان متعدد الأبواب خال من كل شيء فوقف ثلاثتنا فى ركن مكنون ، صاحباى يرفلان فى كامل حليتهما حتي رباط العنق علي حين اكتفيت أنا بالجلباب المغربى ودون شعور بأى حرج لشدة الألفة التى تجمعنا ، سمعت حركة ، نظرت فرأيت رجلا لا أدرى من أين جاء فى ملابس رسمية توحى بأنه ممن يشرفون علي الحفلات تلففت فى جلبابى وقلت لصاحبى .

أخاف أن يقام حفل !

فقالا بالتتابع

لا أظن

لا أهمية لذلك

وجدت حركة أخري فنظرت فرأيت رجلين ماثلين للأول قد انضما إليه فزال كل شك وهربت إلي أقرب باب وفتحته وكأنى وجدت وراءه سداً من جدار البهو ، فكررت المحاولة مع الأبواب جميعاً وخاب مسعاى كالمرة الأولي رجعت إلي صاحبى واندسست بينهما كأنما استتر بهما .

وطمأننى بعض الشيء أن الرجال الثلاثة لم يعيرونا أى التفات وتتابعت الحركات وانهمر سيل من المدعوين من كافة النواحى وأخذوا يملئون المكان دون أن ينظر نحونا أحد مركزين أبصارهم فى ناحية واحدة فلم نملك إلا أن نفعل فعلهم وبدا فجأة شخص جليل فى هيئة الزعامة فتعالت قعقعات الهتاف . وكلما تقدم الرجل خطوة اشتد الهتاف ولكنهم حذروه فى الوقت نفسه من السير نحو الباب الذى بدا أنه يقصده وقلت لصاحبى :

سيفتح الباب عن سد لا منفذ فيه

وتقدم الزعيم وسط هتاف متصاعد وتحذير مستمر حتي فتح الباب ودخل مختفيا عن الأنظار .

تداعيات حلم ٤

(لا يجدي حذر من قدر)

تختلف توجهاتنا وتختلف ثقافاتنا وتختلف مظاهرنا ويختلف جوهرنا .. وتختلف حتي ذواتنا فى داخلنا ، فهذه تلقائية بسيطة وتلك ذات اجتماعية رسمية (أو مرسومة) .. وتكون لنا توقعاتنا المتباينة فى هذه الحياة .. بعضها يتحقق وبعضها الآخر تخيب آمالنا فيه .

أحياناً نخاف من شيء فنتوهم القدرة علي الهرب من المقدر والمكتوب ، ولكننا نكتشف أن هناك مالا يمكن الهروب منه فى هذه الحياة .. وربما نظن بأنفسنا ضعفا أو استكانة أو سلبية أو اعتمادية ، ولكننا نكتشف أننا لسنا وحدنا المسيرين فى هذه الحياة ، بل هناك رجال لهم أدوار مرسومة لا يحيدون عنها .. بل إن من نعتبرهم زعماء يغيرون ويبدلون ويحركون عجلة التاريخ ، هم أيضاً لا يخرجون عن إطار مرسوم ووجهة يسعون إليها ببصيرة أو بغير بصيرة .. ولا يجدى حذر من قدر .

حلـم ٥

أسير علي غير هدي وبلا هدف ولكن صادفتنى مفاجأة لم تخطر لى فى خاطرى فصرت كلما وضعت قدمى فى شارع انقلب الشارع سيركا .

اختفت جدرانه وأبنيته وسياراته والمارة وحل محل ذلك قبة هائلة بمقاعدها المتدرجة وحبالها الممدودة والمدلاة وأراجيحها وأقفاص حيواناتها والممثلون والمبتكرون والرياضيون حتي البلياتشو ، وشد ما دهشت وسررت وكدت أطير من الفرح . ولكن بالانتقال من شارع إلي شارع وبتكرار المعجزة مضي السرور يفتر

والضجر يزحف حتي ضقت بالمشى والرؤية وتاقت نفسى للرجوع إلي مسكنى ، ولكم فرحت حين لاح لى وجه الدنيا وآمنت بمجئ الفرح . وفتحت الباب فإذا بالبلياتشو يستقبلنى مقهقها .

تداعيات حلم ٥

(الحياة سيرك كبير)

حين تسير علي غير هدي وبلا هدف (أى بلا توجيه مسبق أو دفاعات جاهزة) فإنك ربما تنفذ إلي جوهر الأشياء فتكتشف فجأة أن الحياة التى يتكالب الناس عليها ما هى إلا لهو ولعب ، فهى سيرك كبير ملىء بالممثلين والمخادعين والمخدوعين ومليئة بوسائل الإبهار والخداع والتنكر .

وقد تفرح وتنبهر بكل هذه الأشياء فى البداية (كأى شىء جديد) ولكنك ما تلبث أن تملها .... وقد يساورك الغرور فتعتقد أنك وأهل بيتك وخاصتك مبرءون من كل ما سبق فتطمئن إلي أنك شىء مختلف وأن الناس كلهم مخادعون إلا أنت ، وكاذبون إلا أنت ، وممثلون إلا أنت ، ويلبسون أقنعة إلا أنت ، ولكنك حين تفتح باب الحقيقة وتتخطي دفاعاتك النفسية التى تزين لك الأمور ، وحين تتخلي عن إسقاطاتك وإنكارك ، فإنك تكتشف أنك جزء من هذا السيرك الكبير للأسف الشديد .

حلم ٦

رن جرس التليفون وقال المتكلم :

الشيخ محرم أستاذك يتكلم

فقلت بأدب وإجلال :

أهلا أستاذى وسهلا ..

إنى قادم لزيارتك .

علي الرحب والسعة

لم تمسنى أية دهشة علي الرغم من أننى شاركت فى تشييع جنازته منذ حوالى ستين عاما وتتابعت على ذكريات لا تنسي عن أستاذى القديم فى اللغة والدين وما عرف عنه من وسامة الوجه وأناقة الملبس إضافة إلي شدته المتناهية فى معاملة التلاميذ وجاء الشيخ بجبته وقفطانه الزاهيين وعمته المقلوظة وقال دون مقدمات :

هناك عايشت العديد من الرواة والعلماء ومن حوارى معهم عرفت أن بعض الدروس التى كنت ألقيها عليكم يحتاج إلي تصحيحات فدونت التصحيحات فى الورقة وجئتك بها .

قال ذلك ثم وضع لفافة من الورق علي الخوان وذهب .

تداعيات حلم ٦

(دعاة التحريم)

دعاة التحريم .. الذين يغلقون كل الأبواب المفتوحة أمام الناس .. يحرمون ما أحل الله .. يكتفون بالترهيب بدلاً عن الترغيب .. يعتقدون أن البعد عن كل شيء هو وسيلة الأمان الوحيدة من النار .. ويظنون (بل هم متأكدون) أن الناس لا يهذبهم ويربيهم إلا قدر هائل من الخوف والرعب .. فالخوف لديهم مقدم علي الرجاء .. وصفتى القهّار الجبار تسبق صفتى الرحيم الغفار .

هم يجلدوننا ليل نهار بسياط التحذير والتخويف ويعذبون ذواتنا بمشاعر الذنب التى لا نشفي منها أبداً ، ويحجبون عنا صفات الجمال فى الذات الإلهية لحساب صفات الجلال ، مع أن الله اتصف – سبحانه – بالجلال والجمال معا .. فكأنهم اختزلوا صفات الإله وأسماءه وأظهروا لنا نصف الصورة فحرمونا من روعة الكل .

ودعاة التحريم والترهيب والتعذيب والتأنيب والتبكيت والتوبيخ والتقريع يستغلون احترامنا لرموز الدعوة ، وتبجيلنا لمشايخنا فيملأون عقولنا وقلوبنا بمشاهد الهول (وحدها) ويغلقون فى وجوهنا كل أبواب الرحمة .. وربما يسعدهم أننا كلما

زدنا خوفاً ارتمينا فى أحضانهم بحثاً عن الخلاص والنجاة .. وكلما ازددنا رعباً هرعنا إلي ساحتهم .. سامحهم الله لقد حرمونا من نعمة الفرار إلي الله لأنهم خوفونا منه فصرنا نفر إليهم هم ، وهم أبعد ما يكونون عن الرحمة بنا .

ودعاة التحريم لا يخلو منهم عصر ، فقد رأيناهم قديما ، ونراهم الآن فى ثياب أخري ولكن الوجوه نفس الوجوه ، واللغة نفس اللغة ، والتأثير نفس التأثير .

وهم بلا شك بعيدين عن صحيح العلم .. بعيدين عن تكامل المعرفة .. لا يعرفون الله كما وصف هو سبحانه ذاته .. وقد تعاملوا معنا كما تعامل الأب القاسى مع طفله الصغير حين أراده أن يكف عن الحركة والكلام وأن يذهب إلي النوم فحكي له حكايات الوحش و أبو رجل مسلوخه و أمنا الغوله .. وقد سعد هذا الأب القاسى المتجهم حين وجد أن الطفل قد هدأ وانكمش وارتمي فى حضنه وتعلق برقبته . تذكرت كل هذا وأنا أسير فى الطرقات فى المدن والقري وأستمع لتسجيلات صاخبة تهدد وتتوعد وتنذر بالويل والثبور وأهوال المصير .. والناس يتساقطون تحت وابل وعيدهم . ويفقدون القدرة علي الحياة ، بل يفقدون القدرة حتي علي العبادة والاستغفار ويصابون بوساوس لا يستطيعون الإفصاح عنها لأنها مليئة بعبارات تخرجهم من الملة ، ومن أسف فإن أشرطة تسجيلاتهم تباع بالملايين ويتخاطفها العامة والبسطاء (وهم سواد قومي) في حين لانجد للعلماء الراسخين المتزنين الوسطيين التكامليين وجودا ظاهرا ومؤثرا .

ودعاة التحريم حين يعلمون الحقيقة فى عالم الحق قد يحتاجون للاعتذار لكل من فتنوهم ويحتاجون لتصحيح ما أفسدوه فى عقول الناس وقلوبهم .. فهم من الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

فلا يرهبنك مظهرهم وعلو صوتهم ولا كثرة أشرطتهم .. ولا تفر إليهم خوفاً من الله ، بل فر إلي الله مستعيذاً به منهم .

حلـم ٧

يا له من ميدان مترامى الاتساع مكتظ بالخلق والسيارات .. وقفت علي طوار المحطة أنتظر مقدم الترام رقم ٣ والوقت قارب المغيب . أريد العودة إلي بيتى علي الرغم من أنه لا ينتظرنى أحد . ويهبط المساء وتغلب الظلام علي أضواء المصابيح المتباعدة وشعرت بوحشة وتساءلت عن آخر الترام رقم ٣ جميع الترامات جاءت وحملت من المنتظرين ما حملت ولكن لا أدرى ماذا حصل للترام ٣ . وخفت حركة الميدان وقل مرور السبلة حتي كدت أتركه وحيدا فى المحطة فى ميدان خال أنتظر تراما لا يجىء وسمعت صوتا خفيضا فنظرت فرأيت علي مبعدة يسيرة فتاة ينطق مظهرها بأنها من بنات الليل فازداد شعورى بالوحشة واليأس وسألتنى :

– أليست محطة الترام رقم ٣ ؟

فأجبت بالإيجاب وفكرت فى مغادرة المحطة وإذا بالترام رقم ٣ يقترب فى هدوء ولا أحد فيه سوي السائق وقاطع التذاكر ، وشىء من داخلى دعانى إلي عدم الركوب فوليت الترام ظهرى ولبثت علي حالى حتي غادر الترام المحطة . ونظرت فرأيت الفتاة بموقفها ، ولما شعرت بعينى ابتسمت وسارت نحو أقرب منعطف فتبعتها علي الأثر .

تداعيات حلم ٧

(الغواية حتى آخر العمر)

نعيش فى تلك الحياة المليئة بالناس والصراعات ووسط كل هذا نسعي نحو هدف معين نريد تحقيقه .. وقد يتأخر هذا الهدف أو نستبطئ تحققه فتشاغل أعيننا وقلوبنا بعض الملذات والغوايات فتنتابنا مشاعر متناقضة حيالها ولكننا ربما ننصرف عنها حتي لا تشغلنا عن الوصول إلي هدفنا المعلوم والمحدد .

ومع هذا حين يصبح تحقق الهدف أمراً مؤكداً ربما نشك فى جدواه فى مرحلة بعينها من العمر ثم نري أن الملذات والغوايات ربما تشدنا أكثر إليها .

ويبدو أننا كلما تقدمنا فى العمر وتحققت أهدافنا المشروعة أو كادت أن تتحقق

نصبح أكثر ضعفاً أمام ما فاتنا من شهوات وملذات ، وربما نتشكك فى جدوي ما سعينا إليه فى شبابنا .. وربما نلبى نداءات ضعفنا ونزقنا .. فاحذر أيها العاقل من أزمة منتصف العمر .. بل ربما من أزمة نهاية العمر ، ولا تأمن للمشيب فالغواية رابضة....... والمناعة غير مضمونة ..... والخطر قائم حتي آخر العمر ..... والدنيا مغرية ومغوية وكذلك النساء .

حلم ٨

عندما أقبلت علي مسكنى وجدت الباب مفتوحا علي ضلفتيه علي غير عادة، وجاءتنى من الداخل ضوضاء وأصداء كلام .

دق قلبى متوقعا شرا ، ورأيت من أحبابى ابتسامات مشفقة ، وسرعان ما عرفت كل شيء ، خلت الشقة من الأثاث الذى كوم فى ناحية داخل المكان .. عمال من متفاوتى الأعمار ، منهم من دهن الجدران ومنهم من يعجن المونة ومنهم من يحمل المياه .. وهكذا نفذت المكيدة فى أثناء غيابى وذهبت توسلاتى فى الهواء.

وهل أطيق هذا الانقلاب وأنا علي تلك الحال من الإرهاق ؟

وصحت بالعمال من أذن لكم ذلك ، ولكنهم استمروا فى عملهم دون أن يعيرونى أى اهتمام ، وقهرنى الغضب فغادرت الشقة وأنا أشعر بأننى لن أرجع إليها مدي عمرى وعند مدخل العمارة رأيت أمى مقبلة بعد رحيلها الطويل وبدت مستاءة وغاضبة وقالت لى :

أنت السبب فيما حصل !

فثار غضبى وصحت :

بل أنت السبب فيما حصل وما سوف يحصل ..

وسرعان ما اختفت وأمضت فى الهرب .

تداعيات حلم ٨

(الاختراق ... التغيير ...الاغتراب)

حين يتم فتح أبواب الوطن علي مصراعيها بدعوي التجديد والتغيير القادم من الخارج بلا نظام أو تخطيط أو تناغم .. وحين يتم تكويم و تخزين ثقافتنا وتراثنا لحساب الجديد القادم من خارجنا .. حين يحدث كل هذا دون إرادة منا .. وحين يحدث كل هذا ونحن فى حالة استنزاف وإعياء لا حول لنا ولا قوة ..

هنا نشعر بالعجز وقلة الحيلة والاغتراب علي الرغم من مظاهر التجديد ومغريات الحداثة . وحين نشعر بالغربة فى الوطن والغربة فى الذات تبدأ رحلة اللوم وتبادل الاتهامات .. هل نلوم أنفسنا ؟ .. أم نلوم الوطن الأم ؟ .. ومع هذا نظل فى حالة هرب من أنفسنا ويظل الوطن فى حالة هرب منا .. ونعانى آلام الغربة والاغتراب .. ولا عزاء لمسلوبى الإرادة .

حلـــم ٩

علي أريكة فى حديقة المنزل الصغيرة جلست أختى تتأمل ضفدعا يسبح فى القناة التى تروى الحديقة . وانتشيت بالنسيم الرقيق وعناقيد العنب المدلاة من التكعيبة .

وسألت أختى ماذا تنتظرين ؟

وقبل أن تجيبنى قلت :

– من الأفضل أن نجلس فى الحجرة لنسمع الفونوغراف وتبادلنا نظرة اختيار ثم انتقلنا إلي الحجرة وازداد الجو صمتا وحتي النسيم لم يعد معنا .

ونظرت إلي أختى فإذا بها قد تحولت إلي الممثلة السينمائية جريتا جاربو وهى ممثلتى المفضلة وطرت من السعادة بغير أجنحة .

وملأ السرور جوانحى غير أن ذلك السحر لم يدم طويلا . وأردت أن أستعيد المعجزة السحرية مرة أخري ، ولكن أختى رفضت الذهاب معى . فسألتها عن سبب

الرفض فقالت :

– أمى

فقاطعتها قبل أن تتم عبارتها

– إنها لا تدرى

فقالت بيقين

– إنها تدرى كل شىء .

وشعرت بأن الحزن غشي كل شىء كأنه شابورة مفاجئة .

تداعيات حلم ٩

(المشاعر المحرمة)

عجيب أمر تلك الذوات التى تتحرك فى أحشاء نفوسنا والتى تتبادل الأدوار بشكل لا يحتمله وعينا أحياناً .. فتلك ذات هادئة متأملة لخلق الله .. وذاك ذات منتشية فرحاً وطرباً بالنسيم والخضرة والجمال .. وهذه ذات رومانسية حالمة رقيقة .. ثم تظهر وسط هؤلاء ذات شهوانية متحدية طاغية عابرة للحواجز الأخلاقية ولأسوار التحريم ، مهددة الثوابت العائلية والاجتماعية ، لذلك نضطر لقمعها خوفاً ورهبة وحياءاً وخجلاً ، ومع هذا القمع أو هذا الضبط (سمه ما شئت حسب درجة ورعك أو صدقك أو خوفك أو خجلك) نشعر بالفقد والحرمان .. وربما نشعر بالحزن.

تلك هى النفس المليئة بالمشاعر والرغبات والنزوات والتى نعرف بعضها ونجهل أكثرها وما نجهله يتحرك بداخلنا بقوة ويهدد استقرار سطح أنفسنا .

حلــم ١٠

جـمعـتنا الصداقـة والنشـأة وتواعدنا فى تلك الحـارة وذيول الليل تهـبط . ولا هدف لنا إلا الانشراح باللقاء والاستسلام للمزاح والضحك علي طريقة القافية .

وتبادلنا النكات وأخذنا نتحـول إلي أشـباح فى الظلام وتعارفنا بأصـواتنا ولم نكف عن المزاح والقافيـة وانطلقت قـهـقـهـاتنا ترج الجـدران وتوقظ النيـام . الحـارة متعرجـة ونحن نتقارب حتي لا نذوب فى الظلمة وكلما تمادينا فـى الحيرة غالينا فى الضحك وبدأنا نتساءل حتي نجد خلاصنا فى ميدان أو شارع كبير .

وذكرنا أحدنا بأن الملكة الفرعونية التى أرادت الانتقام من الكهنة الذين قتلوا زوجهـا دعتـهم إلي مكان يشبه هذا الذى يغبطون فيـها وسلطت عليـهم المياه ومـا كاد يفرغ من حكايته حتي هطلت السماء علينا بقوة غير معهودة وأسكتنا الرعد ومضت المياه ترتفع حتي غطت أقدامنا وزحفت علي سيقاننا وشعرنا بأننا نغرق تحت المطر فى ظلم الليل ونسينا نكاتنا وضحكاتنا ولم يعد لنا من أمل فـى الخلاص إلا أن نطير فى الفضاء .

تداعيات حلم ١٠

إنما الحياة الدنيا لهو ولعب

(رحلة الحياة والموت والبعث والنشور)

نأتـى إلي الحــيــاة الدنيــا فنلهــو ونمرح ونمزح ونضــحك ونصــادق ونحب ونصخب ونقول ونظن أننا ملأنا الدنيا طربا وبهجة .

وربما يكون اندفاعنا نحـو تلك المشاعر المرحـة دفـاعـاً ضد صـعوبات الحيـاة وظلمتـهـا أو دفاعـاً ضد الخـوف والضيـاع أو نوعـاً من الأنس والائتناس يحـمـينا من تهـديد الوحدة أو الذوبان فى اللاشىء أو يكون ذلك هرباً من الحيرة ومن التساؤلات الأعمق التى تهدد استقرارنا .

فنحن حين نضحك لا نفعل ذلك فقط لأننا سعداء وإنما نفعله أحياناً خوفاً أو هرباً أو بحثاً عن خلاص أو دفاعاً ضد قهر أو ألم .

ويظل الناس غارقون فى لهوهم ومرحهم ودفاعاتهم النفسية حتي تفاجئهم الحقيقة التى عاشوا يهربون منها وتأتى القيامة بمشاهدها التى تكشف هذه الأقنعة وتهز ذلك الأمان الزائف وتضع الجميع فى اختبار حقيقى حين تهطل السماء ويأتى طوفان الماء يزحف ليغطى السيقان ثم يصعد نحو الصدور ويهدد بالغرق ، وينسي الإنسان لهوه وضحكاته وانكاراته وبقية دفاعاته ويصبح فى حالة اختيار حقيقى ويتبين أن لا ملجأ من الله إلا إليه ويعلم أنه لا خلاص إلا بالتوجه نحو السماء .

حلــم ١١

فى ظل نخلة علي شاطئ النيل استلقت علي ظهرها امرأة فارعة الطول ريانة الجسد . وكشفت عن صدرها ونادت يزحف نحوها أطفال لا يحصرهم العد . وتزاحموا علي ثدييها و رضعوا بشراهة غير معهودة وكلما انتهت جماعة أقبلت أخري وبدا أن الأمر أفلت زمامه وتمرد علي كل تنظيم . وخيل إلى أن الحال تقتضى التنبيه أو الاستغاثة ولكن الناس يغطون فى النوم علي شاطئ النيل . وحاولت النداء ولكن الصوت لم يخرج من فمى وأطبق علي صدرى ضيق شديد . أما الأطفال والمرأة فقد تركوها جلدة علي عظم . ولما يئسوا من مزيد من اللبن راحوا ينهشون اللحم حتي تحولت بينهم إلي هيكل عظمى . وشعرت بأنه كان يجب على أن أفعل شيئا أكثر من النداء الذى لم يخرج من فمى وأذهلنى أن الأطفال بعد يأس من اللبن واللحم التحموا فى معركة وحشية فسالت دماؤهم وتخرقت لحومهم . ولمحنى بعض منهم فأقبلوا نحوى أنا لعمل المستحيل فى رحاب الرعب الشامل .

تداعيات حلم ١١

(نهش مصر)

كنت أتصور – سذاجة – أن مصر تعرضت وتتعرض للنهب ، ولكن هذا الحلم (الكابوس) أفزعنى علي حقيقة أن الأمر تجاوز مرحلة النهب ووصل إلي مرحلة النهش ، ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل إن النهّاشين حين فرغوا من النهش راحوا ينهشون بعضهم البعض.

فمصر العظيمة التى تتمدد – ريانة الجسد – علي شاطئ النيل تكشف عن صدرها الملىء بالخيرات لأبنائها ، يتزاحم عليها أطفالها الكثيرون ببراءة (فى البداية) يرضعون من هذا الصدر العذب ، ولكن ما لبثت براءتهم أن تحولت لشراهة ، وتحول الأمر إلي نهب شديد وفوضي مهددة . وبدا للعقلاء من أهلها أن الأمر يحتاج لتنبيه أو استغاثة ولكن أهل مصر – كعادتهم – يغطون فى نوم عميق ويتغيبون فى حالة من السلبية واللامبالاة ، ويغرقون فى بحر من الأمان الكاذب ، ويتصورون خداعاً وزيفاً أن بلدهم المعطاء لا ينفذ خيره . وحاول العقلاء إيقاظ النيام وتنبيه الغافلين إلي خطورة ما يحدث ، ولكن الخوف كتم أصواتهم داخل أفواههم ، وكتم حسرتهم فى صدورهم . وفى هذا الجو الفاسد والمضطرب الخالى من صوت عاقل أو تنبيه رشيد واصل الناهبون والناهشون عملهم فى امتصاص خيرات البلد حتي جفت منابعها وأصبحت جلداً علي عظم بعد أن نهشوا لحمها (حين جف ضرعها) .

ومرة أخري يشعر العقلاء والصالحون من أهل مصر بالندم والحسرة والخجل، فقد تأخروا كثيراً فى التنبيه والتحذير ، ووقفوا مكتوفى الأيدى حتي حلت الكارثة واشتد الصراع وعمت الفوضي ، ولجأ إليهم بنو وطنهم لينقذوا الوطن من الخراب والفوضي ولكن الوقت كان قد فات ولم يبق إلا الرعب الشامل الذى يلفح الناهشون والساكتون علي السواء .

حلـم ١٢

فى الجو شيء مثير للأعصاب ، فهو من عدة نواح تبرز رءوس وتختفى بسرعة . وجرت شائعة مثل الشهاب تنذر بوقوع الحرب . وترددت كلمة الحرب علي الألسنة ، وعمت الحيرة والانزعاج ورأيت من يحمل تموينا لتخزينه . وجعلت أتذكر تلك الأيام المكدرة ، هل نبقي أم نهاجر ؟ ولكن إلي أين؟

ولذت بمقر المكان الآمن من الخطر وجاء رجل من الأمن وقال صراحة : إن الدولة تريد أن تعرف طاقة الأسر علي إيواء من يحتاجون إلي إيواء لا سمح الله . وتضاعف الاضطرابات وأعلنت أمي وهى تعيش وحدها فى بيت كبير أنها علي

استعداد لإيواء أسرة كاملة . أما أنا فوجدت أننا يمكن الاستغناء عن حجرة واحدة تسع لشخصين وأصبحت حذرا عند سماع أى صوت أو الإجابة علي أى سؤال وطرق ببابى مخبر ودعانى إلي القسم ولما سألته عن سبب الاستدعاء أجاب بخشونة أنه لا يعرف وقطع حديثنا انطلاق سفارة الإنذار .

تداعيات حلم ١٢

(مصر وقضايا العرب)

جدل قائم دائماً بين رؤي مختلفة ، هل تقوم مصر – الدولة الأم – فى العالم العربى بدور الأم الحامية الراعية لجيرانها فى أوقات الحروب والأزمات فتحتضنهم وتتبني مشاكلهم وتحمل همومهم ، أم تفعل ذلك فى حدود إمكاناتها البسيطة المتاحة، والتى تحفظ علاقات الود فى حدها المعقول ، أم تغلق علي نفسها الباب فى حدود مصريتها ومشاكلها وهمومها .

عموماً الجو بالخارج (حول مصر) وبالداخل (فى مصر) لا يدعو للاطمئنان ، فحولنا نذر الحرب والخطر والتقلبات والانقلابات ، وداخل الوطن حالة الطوارئ وحوادث الإرهاب والإرهاب المضاد ، والاستنفار الأمنى ، وتوسيع دائرة الاشتباه ، والضعف السياسي ، والجمود ، و...... ، و........... . والمواطن المسكين لا يشعر بالأمان لأنه في ظل هذا الجو المضطرب وفي ظل قوانين الطوارئ يمكن أن يستدعي أو يسجن أو يعتقل في أي وقت .

حلم ١٣

هذا هو المطار. جوه يموج بشتي الأصوات واللغات . وكن قد فرغن من جميع الاجراءات ووقفن ينتظرن . اقتربت منهم وقدمت إلي كل منهن وردة فى قرطاس فضى وقلت :

– مع السلامة والدعاء بالتوفيق

فشكرننى باسمات وقالت إحداهن :

– إنها بعثة شاقة ونجاحنا يحتاج إلي أعوام وأعوام .

فأدركت ما تعنى وغمر الألم قلبى وتبادلنا نظرات وداع صامتة ولاحت لأعيننا مرات الزمان الأول .

وتحركت الطائرة وجعلت أتابعها بعينى حتي غيبها الأفق . وحال عودتى إلي بهو المطار لم أعد أذكر إلا رغبتى فى الاهتداء إلي مكتب البريد .

وكأننى ما جئت إلا لهذا الغرض وحده . وسمعت صوتا يهمس : أنت تريد مكتب البريد؟ فنظرت نحوه ذاهلاً فرأيت فتاة لم أرها من قبل فسألتها عن هويتها فقالت بجرأة :

أنا بنت ريا . لعلك مازلت تذكر ريا وسكينة ؟

فقلت وذهولى يشتد :

– إنها ذكري مرعبة

فرفعت منكبيها وسارت وهى تقول :

– إن كنت تريد مكتب البريد فاتبعنى . فتبعتها بعد تردد غاية فى العنف .

تداعيات حلم ١٣

(الاختراق الناعم)

يبدو أن هناك حالة من الاختراق تثير المخاوف ، خاصة وأنها آتية من الخارج ومن الداخل وفى صور ناعمة هادئة .

فالاختراق القادم من الخارج يأتى فى صور بعثات بحثية يقوم بها أحياناً فريق من الفتيات الجميلات الرقيقات الساحرات اللائى نستقبلهن ونودعهن بالورود ،بالمشاعر المتناقضة بين الإنبهار والألم والتوجس .

وحين نستشعر خطر هذا الاختراق الناعم المتخفى فى قفازات حريرية ، ونحاول إبلاغ من يهمهم الأمر (فعلا) عن طريق رسائل البريد المعتادة ، حينئذ نكتشف أن نوايانا مخترقة وأن هناك من يعرفون أو يعرفن ما نفكر فيه وننوى

عمله، وهذا الاختراق الوطنى أو الداخلى يتم بصورة معروفة نسبياً (ريا وسكينة) ولكننا مع هذا لا نملك الفرار منها ، فنحن إذن بين مطرقة أعداء الخارج وسندان مجرمى الداخل .

حلـم ١٤

تريضت علي الشاطئ الأخضر للنيل ، الليلة ندية والمناجاة بين القمر ومياه النهر مستمرة تشع منها الأضواء هامت روحى حول أركان العباسية المفعمة بالياسمين والحب ووجدت نفسى تردد السؤال الذى يراودها بين حين وآخر لماذا لم تزرنى فى المنام ولو مرة واحدة منذ رحلت علي الأقل لأتأكد من أنها كانت حقيقة وليست وهما من أوهام المراهقة . وهل الصورة التى طبعت فى خيالى هى الصورة الحقيقية للأصل . وإذا بصوت موسيقي يترامي إلى من ناحية الشارع المظلم صارت أشباحا ثم تجلت مع ضوء أول مصباح صادفها فى طريقها ، أدهشنى أنها لم تكن غريبة على فى الموسيقي النحاسية التى كثيراً ما استمعت إليها فى صباى ورأيتها تتقدم بعض الجنازات وهذا اللحن أكاد أحفظه حفظا ، أما المصادفة السعيدة غير المتوقعة فهى أن حبيبتى الراحلة تسير وراء الفرقة هى هى بطلعتها البهية ومشيتها السنية وملامحها الأنيقة ، أخيراً تكرمت بزيارتى وتركت الفرقة الجنائزية تسير ووقفت قبالتى لتؤكد لى أن العمر لم يضع هدراً . وقمت واقفاً منبهراً وتطلعت إليها بكل قوة روحى وقلت لنفسى إن هذه فرصة لا تتكرر . لألمس حبيبة القلب .

وتقدمت خطوة وأحطتها بذراعى ولكنى سمعت طقطقة شيء يتكسر وأيقنت أن الفستان ينسدل علي فراغ وسرعان ما هوي الرأس البديع إلي الأرض وتدحرج إلي النهر وحملته الأمواج مثل ورد النيل تاركة إياى فى حسرة أبدية !

تداعيات حلم ١٤

(الماضي لا يعود)

فى لحظات الصفاء والرومانسية تستيقظ بداخلنا ذكريات المراهقة والشباب فنحاول استعادتها فى ذاكرتنا بأشكالها وأصواتها وروائحها ونعيش لحظات من

السعادة والشجن فى آن واحد ونستدعى تفاصيل تلك اللحظات الجميلة التى عشناها فى هذه السنين الرائعة من العمر حين كانت حواسنا تلتقط الجمال فى كل صوره وكانت أرواحنا تتواصل بلا حدود .

ونحن لا نكتفى باجترار تلك الذكريات ، بل نحاول الإمساك بها وإحاطتها حتي لا تفلت منا مرة أخري ، ولكننا نفاجأ بالحقيقة المؤكدة ، أن الماضى قد مضي ولن يعود ، وأننا لا نستطيع إيقاف حركة الزمان أو تثبيت الصورة أو الإمساك بلحظات أو أحبة قد مضوا وجرفتهم أمواج الحياة .

حلـم ١٥

بهو رصت علي جوانبه المكاتب .. إنه مصلحة حكومية أو مؤسسة تجارية والموظفون بين السكون وراء مكاتبهم أو الحركة بين المكاتب .

وهم خليط من الجنسين والتعاون فى العمل واضح والغزل الخفيف غير خاف وأنا فيما بدا من الموظفين الجدد ومرتبى علي قد حاله وشعورى بذلك عميق ولكنه لم يمنعنى من طلب يد فتاة جميلة وهى كموظفة أقدم وأعلي والحق أنها شكرتنى ولكنها اعتذرت عن عدم الاستجابة لطلبى قائلة :

لا نملك ما يهيء لنا حياة سعيدة

وتلقيت بذلك طعنة نفذت إلي صميم وجدانى .

ومن يومها تحسبت مفاتحة أى زميلة فى هذا الشأن علي الرغم من إعجابى بأكثر من واحدة وعانيت مر المعاناة من العزلة والكآبة .. وألحقت بالخدمة فتاة جديدة فوجدت نفسى فى مكانة أعلي لأول مرة فأنا مراجع وهى كاتبة علي الآلة الكاتبة ومرتبى ضعف مرتبها إلا أنها لم تكن جميلة بل والأدهي من ذلك أنى سمعت همسا يدور حول سلوكها وبدافع من اليأس قررت الخروج من عزلتى فداعبتها فإذا بها تداعبنى ، ومن شدة فرحى فقدت وعيى وطلبت يدها وقالت لى :

آسفة !

فلم أصدق أذنى وقلت وأنا أتهادي

مرتبى لا بأس به بالإضافة إلي مرتبك .

فقالت بجدية :

المال لا يهمنى

وهممت أن أسألها عما يهمها ولكنها ذهبت قبل أن أنطق ..

تداعيات حلم ١٥

(اختلاف الاحتياجات والاهتمامات)

لكل منا احتياجات يسعي لإشباعها ، ومن أهم هذه الاحتياجات الاحتياج لأخري (أو آخر) ولكى نقترب من هذه الأخري نحتاج لأن نلبى احتياجاتها كما تراها هى وليس كما يعن لنا ، فالزواج علاقة بين اثنين لدي كل منهما فائض يحتاجه الآخر وبالتالى هو علاقة تكاملية تشبع احتياجات كلا الطرفين . وعلي الرغم من أهمية الخبرات السابقة فى الحياة إلا أننا حين نعمم هذه الخبرات فى علاقتنا بالبشر وبالمرأة علي وجه الخصوص فإننا نواجه بعض المشكلات حيث نكتشف أن كل إنسان له احتياجاته المختلفة وله متطلباته التى تختلف عما رأيناه فيمن تعاملنا معهم أو معهن من قبل ، ومن هنا يبدو أن كل إنسانه (أو إنسان) حالة خاصة تستوجب الانتباه لها هى شخصياً ولاحتياجاتها هى بعيداً عن أى تعميمات سابقة ، فلكل إنسان موجته الخاصة به ولكي نقترب منه ونتفهمه ونحبه ويحبنا يستلزم هذا توافقا موجيا بيننا وبينه لكي نتواصل .

حلـم ١٦

هنأنى الطبيب المساعد علي نجاح العملية .. عقب إفاقتى من التخدير أشعر بارتياح عميق وبسعادة النجاة الصافية . دخلت الحجرة فجاءت الممرضة بكرسى وجلست مقتربة برأسها من رأسى تأملتنى مليا ثم قالت لى بهدوء شديد :

طالما كانت أمنيتى أن أراك راقدا بلا حول ولا قوة :

فنظرت إليها بدورى وقلت لها فى ذهول : ولكنى أراك لأول مرة فى حياتى

فلماذا تتمنين لى السوء؟

فقالت باحتقار وحقد : جاء وقت الانتقام

وقامت وغادرت الحجرة تاركة إياى فى دوامة من الحيرة والقلق والخوف ، كيف تتصور تلك المرأة أننى أسأت إليها علي حين أننى أراها لأول مرة فى حياتى وجاء الطبيب الجراح ليلقي على نظرة فتشبثت به قائلا:

أدركنى يا دكتور فإن حياتى فى خطر

فأصغي إلى وأنا أقص عليه ما جري وأمر بعرض الممرضات المكلفات بالخدمة فى العنبر على ولكنى لم أعثر علي الممرضة بينهن

وغادرنى الدكتور وهو يقول :

أنت هنا فى كامل الرعاية

ولكن صورة الممرضة لم تفارقنى

ولم تغب عنى الوساوس وكل من دخل الحجرة نظر إلى بغرابة كأننى أصبحت موضع تساؤل وشك وتراءي أمام عينى طريق طويل ملىء بالمتاعب .

تداعيات حلم ١٦

(الخوف بداخلنا)

يبدو أن الخوف شيء أصيل فى تكويننا ، وكلما تجاوزنا خطراً يهددنا وتخيلنا أننا أصبحنا فى مأمن من الخطر داهمنا خطر آخر ، وليس من الضرورى أن يكون ذلك الخطر الذى يهددنا حقيقياً ، المهم أننا نشعر بالتهديد فى أى وقت من أى شيء، ولا يغادرنا هذا الشعور حتي فى المواقف أو الأماكن التى يفترض فيها الرعاية والأمان الكاملين ، فكأنه قدرنا أن نعيش خائفين بحق أو بغير حق ، وربما يزيد هذا الخوف فيصبح رهاباً مرضياً ، وربما يتجسد أكثر فأكثر فيصبح هلاوس (سمعية أو بصرية) أو ضلالات (وهامات) مرضية .

ويبدو أن بداخلنا إحساس عميق بأننا فعلنا ما يستوجب العقاب ، لذلك نتوقع الانتقام والقصاص من الناس حولنا ، ويبدو أن بداخلنا إحساس عميق بالدونية

يستوجب نظرة الإحتقار من الآخرين ، وتزيد هذه الأحاسيس فى لحظات ضعفنا وانكسارنا ولحظات صدقنا حين تقل دفاعاتنا النفسية ونقترب أكثر من حقيقتنا وأخطائنا وضعفنا.

حلــم ١٧

تواصلت أحياء الجمالية والعباسية وأنا أسير وكأننى أسير فى مكان واحد . وخيل إلى أن شخصا يتبعنى ، فالتفت خلفى ولكن الأمطار هطلت بقوة لم نشهدها منذ سنين ورجعت إلي مسكنى مهرولاً . وشرعت أخلع ملابسى ولكن شعوراً غريباً اجتاحنى بأن شخصا غريباً مختف فى المسكن ، واستفزنى استهتاره ، فصحت به أن يسلم نفسه وفتح باب حجرة الاستقبال وبرز رجل لم أر مثيلا فى مساحته وقوته وقال بهدوء وسخرية سلم أنت نفسك .

وملكنى إحساس بالعجز والخوف وأيقنت أن ضربة واحدة من يده كفيلة بسحقى تماماً أما هو فأمرنى بتسليمه محفظتى ومعطفى وكان المعطف يهمنى أكثر ولكنى لم أتردد إلا قليلا وسلمته المعطف والمحفظة .. ودفعنى فألقانى أرضا . ولما قمت كان قد اختفي وتساءلت هل أنادى وأستغيث .

ولكن ما حدث مهين ومخجل وسيجعلنى نادرة ونكتة فلم أفعل . وفكرت فى الذهاب إلي القسم ، ولكن ضابط المباحث كان من أصحابى وستذاع الفضيحة بطريقة أو بأخري وقررت الصمت ولكنى لم أسلم من الوساوس . وخفت أن أقابل اللص فى مكان ما وهو يسير هانئا بمعطفى ، ونقودى .

تداعيات حلم ١٧

(جرائم الاستبداد)

يبدأ الاستبداد فى ظروف غير مستقرة تجعل الناس فى حالة خوف واضطراب وتوقع للخطر من كل مكان حتي فى بيوتهم ، وهنا يظهر المستبد ويغتصب الوطن (البيت) ، ويحكم قبضته ويبدأ فى سلب الناس أموالهم (المحفظة) وهويتهم (المعطف) وقبل كل ذلك إرادتهم (سلم نفسك) .

وتحت تأثير الإحساس بالعجز والخوف والعار يسلم الناس للمستبد فيهينهم ويذلهم (يدفعهم أرضا) ، والاستبداد أشبه بالاغتصاب يخجل الناس من الشكوي منه صراحة رغم ألمهم الشديد منه ، فهم يشعرون بالخزى والعار وفقدان الشرف ، ومع هذا يكتمون تلك الأحاسيس المرة بداخلهم ويعيشون نهباً للوساوس والمخاوف .

هذه هى العلاقة الوثيقة بين الاستبداد والاغتصاب ، فكلاهما جريمة مركّبة ، فالمستبد مغتصب وسارق وظالم وجبان ومزور فى ذات الوقت ، ولذلك يعانى منه الناس علي مستويات ومختلفة بدءاً بالمال ومروراً بالشرف وانتهاءاً بالهوية والإرادة، فما أبشع الاستبداد وما أقذر المستبدين ، وما أحقر الخانعين الخاضعين .

حلــم ١٨

وتم مجلسنا علي الجانبين فى القارب البخارى . بدا كل واحد وحده لا علاقة له بالآخرين وجاء الملاح ودار الموتور . الملاح فتاة جميلة ، ارتعش لمرآها قلبى . أطلت من النافذة وأنا واقف تحت الشجرة وكان الوقت بين الصبا ومطلع الشباب ، وركزت عينى رأسى فى رأسها النبيل وهى تمرق بنا فى النهر وتتناغم خفقات قلبى مع دفقات النسيم وفكرت أن أسير إليها لأري كيف يكون استقبالها لى .

لكنى وجدت نفسى فى شارع شعبى لعله الغورية وهو مكتظ بالخلق فى مولد الحسين ولمحتها تشق طريقها بصعوبة عند أحد المنعطفات فصممت علي اللحاق بها. وحيا فريق من المنشدين الحسين الشهيد .

وسرعان ما رجعت إلي مجلسى فى القارب وكان قد توغل فى النهر شوطا طويلا . ونظرت إلي مكان القيادة فرأيت ملاحا عجوزا متجهم الوجه . ونظرت حولى لأسأل عن الجميلة الغائبة ولكنى لم أر إلا مقاعد خالية . وقمت لأسأل العجوز عن الجميلة الغائبة .

تداعيات حلم ١٨

(رحلة الحياة)

نأتى إلي الحياة (القارب البخارى) فرادي وتدور بنا عجلة الأيام (الموتور) . وفى فترة الصبا والشباب تصحو فينا مشاعر الحب والرومانسية ونعيش لحظات عذبة فى مواقف مختلفة نناجى فيها الحبيب ونتوحد إلي القرب منه .

ثم يأخذنا زحام الحياة (شارع الغورية الشعبى) ، وتتعقد الإهتمامات والإحتياجات وتتشابك وتتصارع ، ونحاول وسط هذا الزحام اللحاق بالأحبة والحفاظ علي مشاعرنا البكر الجميلة التى خبرناها فى شبابنا ونحاول التعلق بالحياة ونصمم علي ذلك .

وفى مرحلة من المراحل نقترب من الرموز الدينية ونعلى من قيم البذل والعطاء والشهادة ونتعلق بالقيم العليا الخالدة والسامية (وحيا فريق من المنشدين الحسين الشهيد) .

وفى أرذل العمر نتوق إلي العودة إلي الشباب وذكرياته الجميلة لعلنا نلطف من حياتنا الجادة المتجهمة ، ولكننا نكتشف أن ما ذهب لا يعود ، ونكتشف أن حياتنا أصبحت خالية ، ولكننا مع هذا لا نكف عن التعلق بأمل عودة الشباب .

حلــم ١٩

انبهرت بالشقة الجديدة بعد تسلمها ، ففحصت كل موضع بنظراتى ، امتلأت جوانحى بالسعادة وقلت لنفسى من الآن يحق لى أن أشغل وظيفة وعلى أن أسعي إليها دون تأخير .

وذهبت إلي السوق ، المكان واسع المساحة مسور بسور من البناء المتين ، وأظهرت أوراق ملكية الشقة فسمحوا لى بالدخول .

المكان مكتظ بالخلق ، لمحت وجوها أحببتها كثيرا ولكنهن جميعا كن متأبطات أذرع رجالهن ، وذهبت إلي النافذة المقصودة وقدمت أوراقى وفى مقدمتها

أوراق ملكية الشقة الجديدة ، وفحصها الرجل وسجلها وقال لي : لا توجد الآن وظائف خالية ، وسوف نتصل بك ، في الوقت المناسب .

شعرت بخيبة أمل وشعرت بأنني سأنتظر طويلا ورجعت مخترقا الجموع ومتأملا بعجلة الوجوه الجميلة التى أحببتها فى الماضى ، ولبثت فى الشقة وحدى ، وفى الطريق سمعت رجلا يقول بصوت جهير لا معني لأن يملك شخص شقة دون أن يشغل وظيفة .. الأولي أن يتركها لغيره فيمن يحظون بفرص أكثر لشغل وظيفة .. وكأنه يعنيني بقوله ، وما دامت الفكرة وجدت فقد تتحول إلي واقع . وساورني الشك والهم ، وانتظرت ما يخبئه الغد بعين قلقة مؤرقة .

تداعيات حلم ١٩

(وطن الحرمان ... والمواطنة المنقوصة)

للإنسان احتياجات متعددة ومشروعة ومن هذه الاحتياجات أن يكون له وطن ينتمى إليه ويصبح مستقراً وسكناً ، ولكن هذه المواطنة تصبح منقوصة إذا فقد الإنسان احتياجات أساسية أخري وهى الحاجة إلي الحب والحاجة إلي التقدير والحاجة إلي العمل والحاجة إلي الحصول علي لقمة العيش . وإن مفهوم المواطنة والانتماء ليهتز ويصبح مهدداً إذا عاني المواطن حرماناً من احتياجاته الأساسية المهمة ، ويصبح الشخص فى حالة قلق وخوف وتوجس لأن مجرد العيش علي أرض الوطن لا يحقق له الأمان والسعادة ، تلك الأشياء التى تحتاج للحب والعمل وتحقيق الذات حتي نشعر بحبنا للوطن واستقرارنا علي أرضه . وتزداد حسرتنا ويتضاعف ألمنا حين نجد غيرنا ينعم بكل شئ ويستكثر علينا مجرد الوجود علي أرض الوطن (الشقة) ويريد أن ينتزعها منا كما انتزع كل شئ من قبل ، وهنا يزداد خوفنال وقلقنا وتزداد غربتنا في وطننا .

حلـــم ٢٠

خرجنا باحثين عن مكان طيب نمضى فيه بعض الوقت ، ونظرنا إلي الهلال ثم تبادلنا النظر . ورأيت علي ضوء المصباح رجلا عملاقا لم تر العين مثله أرسل عمودا لا مثيل لطوله نحو الهلال حتي بلغ طرفه . وراح بحركة ماهرة يفرد طيات نوره حتي استوي بدرا . وسمعنا أصوات تهليل فهللنا معها وقلت إنه لم يحدث مثل هذا من قبل فصدّقت علي قولى ، وانساب النور علي الكون رفعنى علي سطح الماء فهتفت ليلة قمرية فقلت القارب يدعوننا وركبنا ونحن فى غاية السرور ، وغني الملاح رايداك والنبى رايداك ، وأسكرنا الفرح فاقترحت أن نسبح حول القارب . وخلعنا ملابسنا ووثبنا إلي الماء وسبحنا ونحن فى غاية الامتنان ، ولكن القمر تراجع فجأة إلي الهلال واختفي الهلال .. انزعجنا انزعاجا لم نعرف مثله من قبل ، ولكننى شعرت بأنه يجب مراجعة الموقف بما يتطلبه من جدية فقلت ونحن غارقان فى الظلام لنسبح نحو القارب فقالت وإذا ضللنا الطريق فقلت نستطيع أن نسبح حتي الشاطئ فقالت سنكون عاريين علي الشاطئ فقلت : فليؤجل التفكير فى ذلك.

تداعيات حلم ٢٠

(الإنكسار بعد الانتصار)

رفع الزعيم الراية الشامخة حتي بلغت عنان السماء (القمر) ، وواكب ذلك روح الانتصار وارتفعت أصوات التهليل والتكبير وتجاوب معها الجميع وسطع نور الانتصار وغني الناس فرحاً وطرباً ، فمنذ زمن بعيد لم نحقق انتصاراً مثل ذلك .

وراح الناس يلعبون ويمرحون ويحاولون جنى ثمرة ذلك الانتصار التاريخى العظيم ، ولكنهم فوجئوا بأن مكاسب الانتصار قد ذهبت (ربما يشير ذلك إلي اتفاقيات كامب ديفيد بعد حرب أكتوبر) فانزعجوا انزعاجاً شديداً وفقدوا القدرة علي معرفة الاتجاه الصحيح لحركتهم وظلوا حائرين لا يعرفون الطريق واستمر هذا الوضع إلي إشعار آخر.

حلـم ٢١

الشارع الجانبى لا يخلو من مارة وأناس فى الشرفات ، والسيدة تسير علي مهل وتقف أحيانا أمام معارض الأزياء .

يتعرض لها أربعة شبان دون العشرين ، تتجهم فى وجوههم وتبتعد عن طريقهم ، ينقضون عليها ويعبثون بها ، تقاوم والناس تتفرج دون أى مبادرة .. الشبان يمزقون ثوبها ويعرون أجزاء من جسدها ، السيدة تصوت مستغيثة ، راقبت ما حدث فتوقفت عن السير وملكنى الارتياع والاشمئزاز وددت أن أفعل شيئاً أو أن يفعله غيرى ولكن لم يحدث شيء ، وبعد أن تمت المأساة وفر الجناة .. جاءت الشرطة ، وتغير المكان فوجدت نفسى مع آخرين أمام مكتب الضابط ، واتفقت أقوالنا ، ولما سئلنا عما فعلناه كان الجواب بالسلب وشعرت بخجل وقهر ، وكانت يدى ترتجف وهى توقع بالإمضاء علي المحضر .

تداعيات حلم ٢١

(السلبية والعار)

لم يعد الناس كما كانوا .. تبلدت الأحاسيس ، حتي أشدها حساسية وحرارة وهى أحاسيس الشرف والمروءة والتى كانت تستوجب – قديماً– بذل الروح والدم . والأمر ليس خيالاً ، أو حلماً مغرقاً فى المبالغة ، ولكن حدث فعلاً أن اغتصب عدد من الشبان فتاة فى أحد ميادين القاهرة دون أن يتحرك أحد ، وكان هذا الحدث ترمومتراً لقياس أحاسيس الشهامة والمروءة والشرف لدي جموع الناس ، وقد ثبت بالدليل أن هذه المشاعر والأحاسيس قد توارت أو كادت أن تتواري .

ومن يسكت عن جـريمة اغـتـصـاب فـردية يمكن أن يسكت عن جـريمة اغتصاب حق مسلوب أو وطن مغتصب علي يد محتل أجنبى أو مستبد محلى .

ولا يكفى هنا الشعور بالاشمئزاز أو الارتياع فالعار سيلاحق من أخذ موقف الشيطان الأخرس ، وسيسجل هذا في محاضر التاريخ .

حلـم ٢٢

كنا فى حـجـرة المكتب مشـغولين ونظر إلي وجـهى وقال إنك مشغول البال فقلت له بإيجاز وإعياء : الدواء لا تطيقه فقال أفهم ذلك وأقدره وأحـمد الله الذى نجانى من مخالبه فسألته كيف نجا مما لا نجاة منه فقال لى صديق له أخ صيدلى فلمـا عـرف شكواى أكـد لى أنه يملك الحل .. وعـرف منى الأدوية اللازمـة لى ولأسرتى شـهرياً وعرضـهـا علي أخى الصيـدلى فجاءنا بمثيل لها بأقل من عشر الثمن.

فسألته عن مدي الخطورة فى العملية فطمأننى وحدثنى طويلاً عن أساليب شـركـات الأدوية حـتي أذهلنى وأزعـجنى ، ولم أتردد فكتـبت لـه قـائمـة بـالأدوية اللازمة لى شهرياً وأنا أشعر بارتياح عميق .

وإذا به يقول ولكن أريد منك خدمة فى مقابل ذلك فأبديت استعدادى لأداء ما يطلب .

فـقـال أنا يزعـجنى الهـجـوم علي الروتين الحكومى والبـيـروقـراطيـة وتأثر الحكومـــة بمـا يقــال وبما يكتب وأريد منك أن تكرس قلمك للدفــاع عن الروتين والبيروقراطية فدهشت وسألته عن سر حماسه لما أجمع الناس علي نقده ورفضه فـقـال غـاضـبـاً : يا أخـى مـا قـيـمـة الموظف أمـام الجـمـهـور من غـيـر الروتين والبيروقراطية ؟ ودار رأسى حيرة بين الأدوية والروتين .

تداعيات حلم ٢٢

(بين الداء والدواء)

الروتين الحكومى والبيروقراطية أمراض تنهش فينا ليل نهار ، نصرخ منها ونئن علي الرغم من أن حولنا تجارب كثيرة استطاع فيها الناس التخلص من هذه الأمراض بسهولة ، بل الأدهي أن لدينا أفكاراً وإمكانات لا تكلفنا كثيراً وهى كفيلة بعـلاج هذه الأمـراض ، ولكن يبـدو أن بيننا من يحـرصـون علي بقـاء المرض ويكرسون حـيـاتهم دفـاعـاً عنه وتمسكاً به ، بل ويطلبـون من الآخـرين تبنى هذا

الموقف فى الدفاع عن المرض واستبقاءه ، ويبدو أن هذه الأصوات عالية بما فيه الكفاية ، وكافية لأن تستبقى الروتين والفساد فى حياتنا بدليل بقاء هذه الأشياء تترعرع فى حياتنا رغم صراخ المخلصين والأنقياء منها ليل نهار ، ورغم صيحات المفكرين والمصلحين ، فللفساد جنوده المدججين ، وهم يسعون إلي نشره كى يصبح واقعاً مقبولاً ويسعون لتزيينه كى يصبح شيئاً مرغوباً .

حلــم ٢٣

أسير فى الشارع وأنا علي بينة من كل مكان فيه ، فهو عملى ونزهتى ، وأصحابى وأحبائى ، أحيى هذا وأصافح ذاك ، غير أنى لاحظت أن رجلاً يتعدانى بمسافة غير طويلة وغير قصيرة بين كل حين وآخر يلتفت وراءه كأنما يطمأن إلي أنى أتقدم وراءه . لعلى لم أكن أراه لأول مرة ولكن علي وجه اليقين لا تربطنى به معرفة أو مودة وضايقنى أمره فاستفزنى إلي التحدى .. أوسعت الخطي فأوسع خطاه ، أدركت أنه يبيت أمراً فازددت تحدياً ولكن دعانى صديق إلي شأن من شئوننا فملت إلي دكانه وانهمكت فى الحديث فنسيت الرجل وأنهيت مهمتى بعد الأصيل فودعته ومضيت فى طريق سكنى وتذكرت الرجل فالتفت خلفى فرأيته يتبعنى علي نفس طبيعته .. تملكنى الانفعال وكان بوسعى أن أقف لأري ماذا يفعل ولكنى بالعكس وجدت نفسى أسرع وكأنى أهرب منه وأخذ يساورنى القلق وأتساءل عما يريد . ولما لاح لى مسكنى شعرت بالارتياح وفتحته ودخلت دون أن أنظر خلفى ووجدت البيت خالياً فاتجهت نحو غرفة نومى ولكنى توقفت بإزاء شعور غريب يوحى إلى بأن رجل فى داخل الحجرة .

تداعيات حلم ٢٣

(الظل والرقيب)

تحدث العالم النفسى يونج عن القناع والظل ، فكل منا يلبس قناعاً اجتماعياً يتعامل به مع الناس ، وهناك علي الجانب الآخر الظل الذى يحوى صفات هامة لنا لا ندرى بها رغم تأثيرها فى سلوكنا ، وهذا يقابل الوعى واللاوعى عند فرويد ، ويقابل أيضاً الذات الاجتماعية والذات الحقيقية عند كارين هورنى ، وهذا الظــل

(الوجه الآخر لنا) يلاحقنا بتأثيره غير المباشر علينا ، وإذا انتبهنا له انزعجنا منه وكأنه غريب علينا مع أنه يلاحقنا ويعيش معنا . وفى رؤية اريك بيرن تراقب ذات الوالد (الناقدة) ذات الطفل (البريئة) لتحد من تلقائيتها وعفويتها ومرحها وانطلاقها .

كان هذا هو المعني النفسى للتتبع والملاحقة والتأثير فى هذا الحلم ، أما المعني السياسى والأمنى فهو الإحساس بالرقابة والتتبع والذى يسيطر علي الناس فى المجتمعات الاستبدادية والتى يشعر فيها الإنسان دائماً أن هناك عيناً تراقبه فى أى مكان يذهب إليه حتي فى غرفة نومه ، وهذا الإحساس الرهيب هو قمة الاغتصاب للحرية والخصوصية .

حلــم ٢٤

قررت إصلاح شقتى بالإسكندرية بعد غياب ليس بالقصير ، وجاء العمال وفى مقدمتهم المعلم وبدأ العمل بنشاط ملحوظ ، وحانت منى التفاتة إلي شاب منهم فشعرت بأننى لا أراه لأول مرة ، وسرت فى جسدى قشعريرة عندما تذكرت أننى رأيته يوماً فى شارع جانبى يهاجم سيدة ويخطف حقيبتها ويلوذ بالفرار ، ولكنى لم أكن علي يقين وسألت المعلم عن مدي ثقته بالشاب دون أن أشعر الشاب بذلك فقال لى المعلم :

– إنه مضمون كالجنيه الذهب فهو ابنى وتربية يدى واستقر قلبى إلي حين ، وكلما وقع بصرى علي الشاب انقبض صدرى ، وطلبا للأمان فتحت إحدي النوافذ المطلة علي الشارع الذى يعمل فيه كثيرون ممن أعرفهم ويعرفوننى ولكنى رأيت حارة الجراج التى تطل عليها شقتى بالقاهرة فعجبت لذلك وازداد انقباضى ، وجري الوقت واقترب المساء فطالبتهم بإنهاء عمل اليوم قبل المساء لعلمى بأن الكهرباء مقطوعة بسبب طول غيابى عن الشقة .

فقال الشاب : لا تقلق .. معى شمعة .. فساورنى شك بأن الفرصة ستكون متاحة لنهب ما خف وزنه وبحثت عن المعلم فقيل لى إنه دخل الحمام وانتظرت خروجه وقلقى يتزايد ، وتصورت أن غيابه فى الحمام مؤامرة وأننى وحيد فى وسط

عصابة ، وناديت علي المعلم ونذر المساء تتسلل إلي الشقة .

تداعيات حلم ٢٤

(حالة اللصوصية السائدة)

حين يعم الفساد وتخرب الذمم وتهوى الأخلاق تسود حالة من انعدام الثقة والأمان فنتوجس خيفة ممن حولنا خاصة حين تستدعى ذاكرتنا (ولو بشكل مشوش) خبرات سلب ونهب كثيرة فى حياتنا ، وحين يساورنا الشك فى الصغار نهرع إلي الكبار ليحمونا من لصوصية الصغار العابثين ، ولكننا نفاجأ بأن حالة اللصوصية قد امتدت إلي الكبار بل الأدهي أن لصوصية الكبار أكثر تخفياً وأكثر دهاءاً ، فإذا كان اللص الصغير يخطف حقيبة فإن اللص الكبير يسرق شقة (وطنا) ، وأننا أحيانا نذهب لنحتمي من لص فنفاجأ بأننا وقعنا في قبضة رئيس العصابة .

حلــم ٢٥

رأيتها فى الحجرة معى . ولا أحد معنا ، فرقص قلبى طرباً وسعادة ، وكنت أعلم أن سعادتى قصيرة . وأنه لن يلبث أن نفتح الباب ويجيء أحد .. وأردت أن أقول لها إن جميع الشروط التى أبلغت بها علي العين والرأس ولكن تلزمنى فترة من الزمن ولكنى فتنت بوجودها فلم أقل شيئاً ، وناديت رغبتى .

فخطوت نحوها خطوتين لكن الباب فتح ودخل الأستاذ وقال بحدة إنك لا تفهم معني الوقت واقتلعت نفسى وتبعته إلي معهده القائم قبالة عمارتنا وهناك قال لى أنت فى حاجة إلي العمل عشر ساعات يومياً حتي تتقن العزف .

ودعانى للجلوس أمام البيانو فبدأت التمرين وقلبى يحوم فى حجرتى وسرعان ما انهمكت فى العمل .

وعندما سمح لى بالذهاب كان المساء يهبط بجلاله وبادرت أعبر الطريق علي عجل ولكن لم يكن ثمة أمل فى أن تنتظرنى مدة غيابى .

وإذا برجل صينى طويل اللحية بسام الوجه يعترض سبيلى ويقول : كنت فى المعهد وأنت تعزف ، ولا شك عندى أنه ينتظرك مستقبل رائع وانحني لى وذهب

وواصلت سيرى وأنا مشفق مما ينتظرنى فى مسكنى من وحشة .

تداعيات حلم ٢٥

ما نحب ونريد

(الصراع بين الرغبة والقيمة)

كثيراً ما نحب أشياء ونفتن بها ونتمني أن نصل إليها أو نحصل عليها ، ولكننا نكتشف أن هناك أشياء – ربما لا نحبها ونشتهيها بنفس القدر – ولكنها ذات قيمة أكثر دواماً وأوسع تأثيراً .

ذلك هو الصراع بين مبدأ اللذة ومبدأ الواقع (كما قال فرويد) ، فال هو بداخلنا يبحث عن اللذة بأى شكل ولكن ال أنا يحترم قوانين الواقع التى ربما تكون جافة وغير ممتعة وخشنة ، ولكنها طبقاً لمعطيات ومتطلبات الواقع أكثر جدوي علي المدي الطويل ، وربما – بل عادة – تحتاج قوانين الواقع بذل الكثير من الجهد والعرق لتحصيل المكاسب التى نرجوها ، وهذا يستلزم منا تأجيل الكثير من رغباتنا أو حتي استبعادها .

وطبقاً لنظرية إريك برن فى التحليل التفاعلاتى يريد الطفل بداخلنا أن يلهو ويمرح ويستمتع بالحياة ولكن الناضج أيضاً بداخلنا يحترم قوانين الواقع ويقرر تأجيل الاستمتاع وتفضيل ما يفيدنا علي ما نحبه ، وهذا صراع أبدى نعيشه بين ما نحبه وما نريده .

حلـم ٢٦

جمعنا مقهي بلدى ، وقص علينا صاحبى قصة بوليسية من تأليفه .. وقبيل الختام دعانا إلي الكشف عن القاتل . ومن دفع ثمن طلبه ، ووفقت إلي الإجابة الصحيحة وحدث بذلك غاية السعادة . وبعد ساعة استأذنت فى العودة إلي بيتى . ولانشغالى بنجاحى تهت فسرت فى طرق حتي وجدت نفسى أخيرا أمام المقهي مما أثار ضحك الجميع ، وتطوع أحدهم فأوصلنى إلي بيتى وودعنى وانصرف . وبيتى مكون من طابق واحد وحديقة صغيرة وشرعت فى خلع ملابسى ولما صرت

بملابسى الداخلية لاحظت أن خطا من التراب يتساقط من أحد أركان الغرفة .. وكان هذا المنظر قد ورد فى القصة التى ألفها صاحبنا وكان نذيراً بسقوط البيت علي من فيه فبكيت أن بيتى الصغير سينقض فوق رأسى . وملكنى الفزع فغادرت البيت بسرعة ولهوجة واستزادة فى الأمان انطلقت بعيدا عن البيت بأقصي سرعة فى الهواء الطلق .

تداعيات حلم ٢٦

(النبوءة)

ثمة أشياء تحدث فى حياتنا لا نجد لها تفسيراً منطقياً ، ويبدو أنها تخضع لمستوي حدسياً فطرياً فى عقلنا لا ندرى عنه شيئاً ، بل إن هذه الأشياء أكثر حدوثاً لمن يعيشون حياة بسيطة (مقهي بلدى - بيت من طابق واحد) ، وربما تكون قدراتهم العقلية غاية فى التواضع مما يثير سخرية الناس من سذاجتهم وبراءتهم .

والنبوءة (أو الحدس) تحتاج للتخفف من الدفاعات النفسية (وشرعت فى خلع ملابسى ولما صرت بملابسى الداخلية لاحظت ....) ، لكى يكون الإنسان فى حالة شفافية وصفاء نفسى تسمح له برؤية ثاقبة نافذة تشق ضباب الواقع لتري ما سيحدث .

ويبدو أن جهازنا النفسى مزود بما يشبه أجهزة الإنذار المبكر والتى تلتقط بعض علامات أو إشارات أو إيماءات من كلمات عابرة أو إيماءات أو إيحاءات تبدو غير مقصودة ، ولكن هذه الأجهزة نقرأ منها الكثير .

حلــم ٢٧

فى سفينة عابرة للمحيط . الناس من كل لون ولغات شتي . وكنا نتوقع هبوب ريح وهبت الريح واختفي الأفق خلف الأمواج الغاضبة ، إنى ذعرت ولكن أحداً لم يكن يعنى بأحد . وقال لى خاطر إننى وحيد فى أعماق المحيط . وأنه لا نجاة من الهول المحيط إلا بأن يكون الأمر كابوساً وينقشع بيقظة دافئة بالسرور . والريح تشتد والسفينة كرة تتقاذفها الأمواج . وظهر أمامى فجأة حمزة أفندى مدرس

الحساب بخيرزانته وحدجنى بنظرة متسائلة عن الواجب . كان الإهمال الواحد بعشر خيرزانات تكوى الأصابع كياً . وازددت كرها من ذكريات تلك الأيام.

وهممت بدق عنقه ولكنى خفت أن يكون أى خطأ سببا فى هلاكى فسكت علي الذل وتجرعته رغم جفاف ريقى . ورأيت حبيبتى فهرعت نحوها أشق طريقاً بين عشرات المذهولين . ولكنها لم تعرفنى وتولت عنى وهى تعلن ساخطة وجرت نحو حافة السفينة ورمت بنفسها فى العاصفة واعتقدت أنها تبين لى طريق الخلاص فجريت متعثراً نحو حافة السفينة ولكن مدرس الحساب القديم اعترض سبيلى ملوحا بعصاه .

تداعيات حلم ٢٧

(دعاة الترهيب)

الحياة مليئة بالأحداث والأهوال (سفينة عابرة للمحيط .. واختفي الأفق خلف الأمواج الغاضبة) ، وكثيراً ما نشعر فيها بالوحدة والضياع والتهديد بالفناء .. ونحن فى هذه الأجواء المرعبة نحتاج من يطمئننا ويعطينا الأمن والسلام ، ولكن للأسف الشديد يظهر علينا نوع من دعاة الترهيب (حمزة أفندى مدرس الحساب وخيرزانته وحدجنى بنظرة متسائلة عن الواجب) يرعبوننا بما ينتظرنا من عقاب ، ويتوعدوننا بالعذاب الشديد علي أى خطأ (الإهمال الواحد بعشر خيرزانات تكوى الأصابع كيا) . هؤلاء الدعاة سدوا أمام أعيننا منافذ الرحمة وجعلوا حياتنا شقاءاً (وازددت كرها من ذكريات تلك الأيام) بما بثوه فى نفوسنا من الرعب ، فقد زادوا جريمة الألم والخوف والرعب فى حياتنا التى كانت بحاجة إلي لمسة حنان وهمسة طمأنينة ونسمة رحمة وسماح وغفران .

هؤلاء الناس حجبوا عن وعينا رحمة الله وعفوه ومغفرته فجعلونا لا نراها ولا نتوقعها ولم يكتفوا بزرع الخوف الرهيب فى نفوسنا من الله ، ولكنهم زرعوا فى نفوسنا الخوف منهم هم وأغلقوا أمامنا كل منافذ الخلاص لكى نظل دائماً تحت تهديدهم ووعيدهم بالعقاب الأبدى .

حلـــم ٢٨

تتـحلق المسـتديرة والنقـود تذهب وتجيء ، أمـا الفتـاة الجـميلة فكانت تقـوم بالخدمـة وتقديم المشروبات وأحياناً السندوتشات . وابتسم لى الحظ فربحت عددا من الجنيـهـات يعـد كـبـيـرا فى مـجـالنا المحـدود وشـعـرت بدوار خـفـيف فـأعلنت أننى سأنسحب، وعند ذلك اتهم أحـد اللاعبين الفتـاة بأنها كـانت تكشف لى خـفـيـة عن باقى أوراق اللعب فغضبت الفتاة كما غضبت أنا احتجاجاً علي التهمة البطالة . وقام الرجل ومـعـه آخـران ونزعـوا ثياب الفتـاة حـتي تبـدت عـارية وهـى تصرخ وتهـدد بإبلاغ الشرطة عن الشقة التى تدار للمقامرة وغيرها من المحرمات فسرعان ما عاد كل إلي مـجلسه . وساعدت الفتاة علي ارتداء ملابسها وغادرت المكان إلي مسكنى القريب .

وجلست أستريح فإذا بالفتاة تحضر وأخبرتنى أن المجموعة غاضبة وزادها السكر غضباً وتهدد باقتحام مسكنى وإشعال الفضيحة فى الحى كله ونصحتنى أن أرد ما ربحته حلا للمشكلة ، ولكنى قلت لها إنهم سيعتبرون ذلك اعترافا بجريمة لم نرتكبها ، فقالت إن ذلك أهون مما يعتزمون ارتكابه وأذعنت لرأيها وسلمتها النقود وذهبت بها . وعاد الهدوء لليل ولكنى لم أزل أتوقع فضيحة أو شراً من ذلك .

تداعيات حلم ٢٨

(أعداء النجاح)

الحياة تدور بين الناس ، وفيها الكثير من المقامرات والمغامرات ، وأحياناً يحـالف الحظ بعض الناس (وربما يستـحـقـون ذلك عن جـدارة) ، وعندئذ تظهـر الأحقاد والعداوات تحيط بمن حقق كسباً أو نجاحاً يريدون نزع ذلك الكسب وخطف ذاك النجـاح بالقوة أو بالمكيـدة أو بكيل الاهتمـامـات والتـشكيك فى أصـالة النجـاح واستحقاقه .

وفى بعض الأحـيان ربما يضحى الناجح بنجـاحـه فيلقيـه فى وجـوههم كى يعيش فى راحة بال ، وحتي لو فعل هذا فإنه يظل حياته لا يأمن مكرهم وكيدهم .

ومحفوظ قد عاش شخصيا هذه المحنة حين فاز بجائزة نوبل فاتهمه البعض بموالاة الصهيونية ، واتهموه بمعاداة الأديان فى روايته أولاد حارتنا ، وبناءا علي هذه التهم حاولوا قتله .

حلـم ٢٩

المكان جديد لم أره من قبل . لعله بهو فى فندق وقد جلس الحرافيش حول مائدة . وكانوا يناقشونى حول اختيارى أحسن كاتبة فى مسابقة ذات شأن . وبدا واضحاً أن الكاتبة التى رشحتها لم تحز أى قبول . قالوا إن ثقافتها سطحية . وأن سلوكها غاية فى السوء . وعبثاً حاولت الدفاع . ولاحظت أنهم ينظرون إلى بتجهم غير معهود وكأنهم نسوا عشرة العمر . وتحركت لمغادرة البهو فلم يتحرك منهم أحد وأعرضوا عنى بغضب شديد ، سرت نحو المصعد ودخلت وأنا أكاد أبكى . وانتبهت إلي أنه توجد معى امرأة فى ملابس الرجال ذات وجه صارم . قالت إنها تسخر بما يسمونه صداقة وإن المعاملة بين البشر يجب أن تتغير من أساسها . وقبل أن أفكر فيما تعنيه استخرجت مسدساً من جيبها ووجهته إلى مطالبة إياى بالنقود التى معى. وتم كل شيء بسرعة ولما وقف المصعد وفتح بابه أمرتنى بالخروج وهبط المصعد ووجدتنى فى طرقة مظلمة وقهرنى شعور بأننى فقدت أصدقائى وأن حوادث كالتى وقعت لى فى المصعد تتربص بى هنا أو هناك .

تداعيات حلم ٢٩

(الاغتراب .. الوحدة .. الخوف)

أحياناً يشعر الإنسان أنه غريب حتي وسط خاصته وأصدقائه ، وأنه أصبح معزولاً عنهم فكرياً وعاطفياً ، فلم يعد ثمة تواصل أو توافق فى الرؤى والأفكار والخيارات .. وهنا ربما يقرر أن يبتعد عن صحبته ويكفر بالصداقة ويعيش وحيدا ، ويكتشف حينئذ أن الوحدة تحمل الكثير من المخاطر والتهديد ، وأن البقاء وسط الصحاب – رغم ما يحمل من مشكلات وخلافات – أكثر أمانا وسلاما من الوحدة والانسحاب بعيدا عن الناس .

حلـم ٣٠

هذا بيتنا بالعباسية أدخل الصالة أمى تذهب إلي المدخل وأختى تجيء فتقف لحظات ثم تلحق بأمها . لم نتبادل السلام ولكنى أعلنت عن جوعى الشديد بصوت مسموع . لم يرد أحد فكررت الطلب . وسمعت أصواتا فى الحجرة المطلة علي الحقل فذهبت إليها فوجدت أخى الأكبر يجلس صامتا ويتربع أمامه علي الكنبة شيخ بالأزهر وقال الشيخ كلاما جميلا ولما انتهي قلت له إنى جائع فقال لى إن أحدا لم يقدم له القهوة ولا حتي قدح ماء فغادرت الحجرة وقلت بصوت تسمعه أمى وأختى أن يقدما القهوة لفضيلة الشيخ وأن يحضرا لى طعاما ولو قطعة خبز وجبنة – ولم أتلق إلا الصمت غير أنى سمعت حركة فى الحجرة المطلة علي الفناء فأسرعت إليها وذكرت أنها حجرتى وفيها الفونوغراف والاسطوانات التى أحببتها فوجدت بنت الجيران التى كانت تزورنى لتستعير بعض اسطوانات سيد درويش خصوصا اسطوانة أنا عشقت وكانت تبحث عن إبرة لتسمع اسطوانة فقلت لها إنى جائع فقالت لى إنها جائعة أيضا . وغلبنى الجوع فغادرت الحجرة وصحت طالباً لقمة ولما لم أجد أى شيء غادرت البيت والمساء يظل الطريق والطريق خال وخفت أن تكون المحال قد أغلقت ولكنى اتجهت نحو المخبز منهوك القوة من الجوع وثمة أمل يراودنى .

تداعيات حلم ٣٠

(الحرمان في الوطن)

ننتمى للوطن ونعود إليه متوقعين الأمان والسلام والدفء والشبع والحنان والحب ، ولكننا لسبب أو لآخر لا نجد كل هذا ، بل نجد كل إنسان فى الوطن – حتي من أحبائنا – مشغولاً بنفسه وباحتياجاته الخاصة ، ولا نجد من يستمع إلينا أو يستجيب لاحتياجاتنا مهما كانت ملحة ومشروعة وأساسية .

ما أصعب أن يصم الوطن أذنيه تجاهنا فلا يسمع صوتنا ، ولا ينتبه لاستغاثاتنا .. ما أقسي أن نعيش فى بلدنا حالة من حوار الطرشان .. يتكلم كل إنسان فلا يسمعه أى إنسان .. حينئذ نشعر بالوحدة والغربة والحرمان والغضب .. ويضعف الانتماء ، ونشعر بمرارة تجاه الوطن ، ولكن ثمة أمل يظل يراودنا أن الوطن سيحتوينا ويعطينا .. ولا نعرف مدي صدق هذا الأمل .

حلـم ٣١

أمتطي حماراً يسير بي وسط الحقول خطوات رتيبه وأنا خال من المشاعر تحت أشعه شمس الخريف . وترامي إلينا نباح كلب فتوقف الحمار فنخسته بكعبي فعاد إلي السير ، وتعود النباح وتنوح فأحدد بصري لأري الرجل الذي أقصده . وظهرت أمرأه محاطه بالعديد من الكلاب فهتفت فيها ألا تكف عن النباح فأذعنت لها فسلمت وقلت إني قادم لمقابلة الشيخ بناء علي خطابيين متبادلين . قالت المرأه إنها صاحبة الأمر الأخيرة وأنها تستطيع أن تقدم الخدمات المطلوبه كما تستطيع أن تفني من تشاء إن حرضت عليه الكلاب .

فقلت : إنني جئت للسلام لا للحرب وإني أريد عملاً . وأشارات إليّ فنزلت عن ظهر الحمار ووقفت أمامها في خشوع وسارت وتبعتها ومن خلفي الحمار تحيط بنا الكلاب . ووقفت أمام مبني صغير فتوقف الركب كله . وأمرتني بالدخول فدخلت وقالت لي أن أنتظر في الداخل وحذرتني من الخروج إلي الكلاب التي لا ترحم . فسألتها حتي متي ألبي . وماذا عن العمل ؟ وأن الشيخ وعدني خيراً ولكنها لم تحفل بكلامي وأمتطيت الحمار وذهبت تاركه الكلاب حول المبني وكانت ترسل إلي باحتياجاتي مع رجال أشداء ولكنهم لا ينبسون بكلمه وأفكر أحياناً في الدخول مع الكلاب في معركة حياه أو موت . ولكن يتغلب الأمل فأنتظر.

تداعيات حلم ٣١

(العلاقة الشائكة بين المفكر والسلطه)

يعيش المفكر في بداياته حالة من البساطة والبراءة الفكرية والصفاء العقلي بعيدا عن الصراع (أمتطي حمارا يسير بي وسط الحقول خطوات رتيبة وأنا خال من المشاعر تحت أشعة شمس الخريف – ركوب الحمار هنا يرمز للحكمة أو الفلسفة، ربما جاءت من اعتياد الفلاسفة ركوب الحمير وتمجيدها ، وقد كتب بعضهم الكثير عن الحمار وعلاقته الصامتة بالحكمة والفلسفة كما فعل توفيق الحكيم في : حماري الفيلسوف) . ثم يتعرض لبعض التحذيرات والتهديدات غير المباشرة والتي توشك أن تثنيه عن طريقه ، ولكنه يحاول الإستمرار (وترامي إلينا نباح كلب فتوقف

الحمار فنخسته بكعبي فعاد إلي السير) ، فيتزايد التحذير(وتعوّد النباح وتنوع) ، ثم تأتي مرحلة تفرض عليه علاقة غامضة وملتبسة بالسلطة قد تبدو في أولها علاقة ودية (خطابين متبادلين) وقد يظهر منها أن التعامل يتم مع سلطة رشديدة (الشيخ)، وأن التعامل قائم علي تبادل المنافع ، ولكن المفكر وهو في طريقه للإقتراب من السلطة (بناءا علي طلبها أو طلبه حيث لم يتضح ذلك في الحلم) يكتشف أنها مسبوقة ومحاطة بأدوات وأذرع للسلطة تتسم بالغموض والرعب (وظهرت امرأة محاطة بالعديد من الكلاب .. قالت إنها صاحبة الأمر الأخير وأنها تستطيع أن تقدم الخدمات المطلوبة كما تستطيع أن تفني من تشاء إن حرضت عليه الكلاب) . ويجد المفكر نفسه وقد أصبح في مواجهة مع قوي خفية ومرعبة وغامضة وغير منطقية ، ولا يعرف إن كانت تنتمي إلي السلطة الشرعية أم غريبة عنها ومدّعية الإنتماء لها ، أم أن هناك توزيع أدوار بين السلطة الشرعية وبعض القوي غير الشرعية التي تهدده . وحين يسلم لها طاعة أو خوفا أو طمعا (وأشارت إليّ فنزلت عن ظهر الحمار ووقفت أمامها في خشوع وسارت وتبعتها ومن خلفي الحمار تحيط بنا الكلاب) تضعه في الإطار الضيق الذي تراه وتسجنه فيه (ووقفت أمام مبنى صغير ... وأمرتني بالدخول فدخلت ، وقالت لي أن أنتظر في الداخل وحذرتني من الخروج إلي الكلاب التي لاترحم) . وهنا ربما تبدو السلطة وكأنها تقدم الحماية للمفكر من أخطار تهدده (الكلاب التي لاترحم) ، ولكن هذه الحماية تتحول إلي قيود ووصاية وإن كانت تأخذ في ظاهرها شكل الرعاية (ترسل إلي باحتياجاتي مع رجال أشداء ولكنهم لا ينبسون بكلمة) .

وقد يدور بخلد المفكر أن يدخل مع الرعب والتهديد (الكلاب) في معركة حياة أو موت ، ولكن الأمل يتغلب عليه في إنصلاح الأحوال فينتظر .

حلم ٣٢

حدثني الزميل القديم فقال إنه ذاهب للعمل في اليمن وقال لي إن ثمة كلاماً يدور حول دعوتي للعمل في اليمن وحثني علي القبول فوعدت بالتفكير في الموضوع دون أن أبدي أي حماس له . وفي البيت الذي أعيش فيه وحيداً مع كلبتي فكرت في الأمر علي غير المتوقع. وشجعني علي ذلك نفوري من كلبتي الذي تولد

منذ أخذ وجهها يتغير ويتخذ صورة وجه إنسان ، كانت وهي كلبة خالصه جذابه ومسليه أما بعد التغيير المذهل فلم تعد كلبة ولا بلغت أن تكون إنساناً وسرعان ما أجد نفسي في حجرة مكتبي في اليمن وسكرتيري الخاص واقف بين يدي وكانت الحرارة شديدة فسألت السكرتير عن حال الجو في هذا البلد فقال لي إنه دافيء شتاء وشديد الحراره بقية فصول السنة ولكن المبني مرتفع جداً وكلما ارتفع تحسن الجو وأنه ما عليّ كلما ضقت بالجو أن أكتب التماساً للمدير للنقل إلي طابق أعلي . سررت بعد إكتئاب وقمت إلي النافذة ونظرت إلي أعلي فرأيت المبني عظيم الإرتفاع حتي خيل إليّ أنه يلامس السماء .

ورأيت رءوساً تطل من النوافذ العاليه فارتعش قلبي لرؤيتها إذ رأيت فيها وجوه أحبة الزمان الأول . سررت سروراً لا مزيد عليه وحمدت الله علي قبولي الدعوه للعمل في اليمن السعيد .

تداعيات حلم ٣٢

(الغربة والإغتراب)

حين يشعر الإنسان بحاله اغتراب في وطنه فيشعر أن الوفاء أخذ في التلاشي (الكلبة التي تغير وجهها وأصبحت مسخا) وأن الحياه تتشوه ، وأن ما كان مألوفاً ومطمئناً له قد تغير ، هنا يهون عليه الوطن ، ويسافر إلي بلاد – ربما كان يعتبرها أقل تطوراً – ولكنه الآن يجد فيها الراحة والرفاهية والسعادة علي الرغم من أن الرؤوس التي رآها فيها تعيش في أفكار الزمن الأول . وربما يشير هذا الحلم إلي حالة الهجرة إلي بلاد النفط حيث الرفاهية والحياة السلسة المريحة ، والمباني الشاهقة ، ولكن البشر ينتمون فيها إلي أفكار الماضي وينتمون إلي مراحل زمنيه سابقة في سلم التطور الإنساني علي الرغم من معيشتهم في أبراج عالية .

وقد يكون في هذا الحلم إشارة إلي حاله التحول من اليسار إلي اليمين حيث تغير الفكر اليساري وتشوه ، فتحول الناس إلي اليمين بحثاً عن حلم الجنة في أحضان الراحة والرفاهية والعودة إلي الزمن الجميل وإلي اليمن السعيد (بكل ما تشير إليه الكلمة من احتمالات وهمية السعادة في نظر صاحب الحلم) .

حلـم ٣٣

ماذا حل بالشارع بل بالحي كله ؟ .. علي ذاك لم أكن أتوقع خيراً فيما أري.

الحي كله كأنما هرم به العمر فذهب رونقه وتناثرت القمامة هنا وهناك ، وصادفني أحد العاملين فسألته :

ماذا جري ؟

فأجاب وهو يبتسم :

البقاء لله وحده ، وسبحان مغير الأحوال .

وقصدت مسكن صديقي متوقعاً أن يحيق به ما حاق بالحي كله أو أكثر ، ولا أنكر أنه كان وساطتي للحصول علي بعض الأدويه الضروريه من الخارج كما كانت مكالمة تليفونية منه تحل أعصي المشكلات في المصالح الحكومية ، وجدته كاسف البال لا يأمل خيراً في شيء. فعزيته وقلت له إنه صاحب مهنه علي أي حال .

فقال متهكماً :

ستثبت لك الأيام أننا لسنا أسوأ من غيرنا .

وساءلت نفسي تري هل يوجد حقاً ما هو أسوأ ، وسرعان ما حضر نفر من الشبان والشابات ومع كل حقيبته ملأها بأشيائه المودعة في الشقه مثل البيجامات والملابس الداخليه والقمصان النسائيه الفاتنة وداهنة وروائح عطرية .

وحمل كل حقيبته وذهب .. نطق كل شيء بما كانت تؤديه شقته من خدمات كما فطن بتدهوره ، وتساءلت في نفسي تري هل كان ينعم بالفخر أو أنه تجرّع المذله والقهر .

تداعيات حلم ٣٣

(الفساد والاغتراب)

أصاب الفساد كل شيء وتغلغل فيه إلي درجة أصبحت توحي بالضياع وانعدام الأمل في الإصلاح ، والجميع يشعر بأنه لا فائدة حتي أولئك الذين يجد

الناس عندهم الحل للمشكلات الصعبة (كان وساطتي للحصول علي بعض الأدوية الضرورية من الخارج كما كانت مكالمة تليفونية منه تحل أعصي المشكلات في المصالح الحكومية) أصابهم الإحباط واليأس ولم يعد لديهم القدره علي تقديم الحلول أو معالجه الأمور (الأدويه الضروريه) فقد وصل الأمر إلي حاله جعلت الجميع لا يأملون خيراً في أي شيء ، وإذا حاول أحد أن يتكلم فهو يقول بسخرية وتهكم : لسنا أسوأ من غيرنا ، ثم تظهر التبريرات المدعمة للفساد قائلة : إذا كان لدينا فساد فالفساد صفة بشرية توجد في كل المجتمعات ، وإذا كان لدينا إرهاب فالإرهاب يملأ العالم ، وإذا كان لدينا بطالة فالبطالة موجودة في كل الدول حتي المتقدمة منها وإذا كان لدينا رشوة فالرشوة موجودة في كل مكان ، وهكذا يبقي التبرير هو الملاذ الأخير لمجتمع الفساد . أما الشباب فإنهم يشعرون بالإغتراب في هذا الجو الفاسد ، وقد يظهر اغترابهم في صورة إنحراف أخلاقي أو انغماس في أشياء سطحية تافهة (ومع كل حقيبته ملأها بأشيائه المودعة في الشقة مثل البيجامات والملابس الداخلية والقمصان النسائية الفاتنة وداهنة وروائح عطرية) ، أو الهجره من الوطن (وحمل كل حقيبته وذهب) ، ويصاحب كل هذا فقدان للهويه (تري هل كان ينعم بالفخر أو أنه تجرع المذلة والقهر) .

حلـم ٣٤

عند منعطف من منعطفات الحارة ، رأيت أمامي الصديقين الشقيقين اللذين طال غيابهما وأحزنني غاية الحزن ، وبهتنا لحظات ثم فتحت الأذرع وكان العناق الحار . وتذاكرنا الأحزان والأفراح والليالي الملاح وطلبا مني زيارة سكني فمضيت بهما إليه علي بعد أمتار، وتفحصاه حجرة بعد حجرة وضحكا طويلاً كعادتهما ثم أعربا عن أسفهما لبساطة المأوي ثم سخرا مني بلسانيهما اللاذعين الجذابين ، وسألاني عن عملي الذي أعيش منه ، فأجبت بأنني عازف رباب وأتغني بعذابات الحياة وغدر الدهر ، وعزفت لهما وغنيت فقالا إنها حياه أشبه بالتسول ولذلك فهما لا يدهشان لما يبدو في وجهي من أثار الضعف والبؤس وقالا لي إنهما بحثاً عني طويلاً حتي عثرا علي ، وتبين لهما أن قلقهما كان في محله وأنهما يبشرانه بالفرج. حمدت الله علي ذلك ولكن ما الذي يبشرانني به ، قالا ستهاجر معنا إلي المكان

الجميل والرزق الوفير ، فسألت كيف يتيسر لي ذلك فقالا إنهما – كما أعلم – يمتان بصله لأصحاب النفوذ ولا خير يجيء إلا عن طريق أصحاب النفوذ .

وتأبطاً ذراعي وسارا بي إلي الخارج ، حتي بلغنا أحد الرجال العظام شكلاً وموضوعاً، وإستمع للحكايه بوجه محايد ، وقال لي إن الهجرة تحتاج لهجة عالية وصبراً طويلاً ، فوعدني خيراً وقال الصديقان ، إنهما يطمئنانني فقال :

– انتظروني عند الجامع علي طلوع الفجر .

تداعيات حلم ٣٤

(بين مثاليات اليسار وأحلام اليمين)

في هذا المنعطف التاريخي من حياة الوطن يتحول الناس فيهجرون المثاليات المتعلقة بالفن والأدب (أتغني بعذابات الحياة وغدر الدهر) ، تلك المثاليات التي لا تحقق لصاحبها غير الفقر والإحتياج والبؤس ، ويتحولون إلي حيث النفوذ والثروة والرفاهية وأحلام السعادة ، ويكتشف الحالم أنه يتحول من إهتماماته الفنيه إلي أحلام أخرويه تأتيه بعد مشوار طويل من العبادة الشاقة .

وقد يكون في ذلك إشاره إلي إفلاس اليسار بأفكاره المثالية والتي أدت إلي مزيد من البؤس والشقاء ثم صعود اليمين وما يعد به من جنات ونعيم في العالم الآخر ، دون وجود خيار ثالث يجمع بين الدنيا والأخره .

وقد تكون ثورة علي الإستقطاب الحاصل بين الوجود الفني العدمي والوجود الديني في شكله النفعي أو الإغترابي .

حلـــم ٣٥

في بيت العباسيه ونحن نأوي إلي أسرتنا للنوم أيقظني صوت أبن أخي وهو يصيح حريق في السقف ، ونهضت فزعاً وجاء إبن أخي بالسلم الخشبي وأقمناه في الصاله وصعد كل واحد منا علي جانب حاملاً ما استطاع حمله من الماء وأخذ يرشه علي النار الساريه بين الأركان ، واقتحمت حجرة أختي . وأيقظتها من نومها العميق ومن عجب أنها قامت متكاسلة ومتشاكية من أننا لا نتركها أبداً تنعم بالنوم .

وعلي أي حال ساعدتنا بملء الأوعية بالماء حتي سيطرنا علي النار وأخمدناها وبدأنا نحقق في الأمر ولكن رجال المطافيء حضروا علي أثر إستدعاء الجيران لهم وتأكدوا من خمول النار وفتحوا الشرفات وتفقدوا الأثاث الموجود بها وانتهي الحريق بعد أن أفحمنا فزعاً ، وعندما جلسنا نستعيد بعض هدوئنا دق جرس التليفون ، ويلاحظ هنا تداخل الزمان والمكان إذ أن بيت العباسيه لم يكن به تليفون ، وهكذا أصبحنا في مسكن آخر مع أناس آخرين دق جرس التليفون وكان المتحدث صاحب العمارة التي استأجرنا بها شقة في الأسكندريه ودعانا الرجل إلي الإسكندرية دون إبطاء وأنه شبت النار داخل الشقة وطمأننا أنه استدعي المطافيء فأخمدوا النار ولكن حضورنا ضروري بطبيعة الحال . وفي الحال ارتدينا ملابسنا أنا وزوجتي وأسرعنا إلي محطة الباص الصحراوي وكنا في غاية الكدر والإنزعاج حتي أنني أقترحت علي زوجتي إخلاء الشقه وتسليمها لصاحبها خاصة وأنها تعرضت إلي محاولة سرقه قبل ذلك ولكنها قالت لي إنتظر حتي نري ماذا ضاع منا وماذا بقي.

تداعيات حلم ٣٥

(الخطر فى كل مكان على أرض الوطن)

فالحوادث المؤسفة تتكرر في كل مكان والإرهاب يتنقل من مكان لآخر ، وكلما ساد الشعور بالسيطرة علي خطر ظهر خطر في مكان آخر ، للدرجة التي انعدم فيها الإحساس بالإستقرار أو الإحساس بالأمان .

وهذا الإحساس بالخطر وعدم الأمان يورث إحساساً بفقد الإنتماء ، ويجعل الناس تفكر في الهجرة بعيداً عن الوطن ، ومما يعضد من هذه المشاعر السلبية وجود الفساد بجانب الإرهاب أو قبله ، وهذا مما يجعل بعض الناس يفكرون في هجر أوطانهم ولكن البعض الآخر ربما يفضلون الإنتظار لما تسفر عنه الأيام وما تكشف عنه من أسرار كلا من الفساد والإرهاب والأخطار المحدقة بالوطن في كل مكان .

حلم ٣٦

جمعنا بهو ما . ثمة وجوه أراها لأول مرة ووجوه أعرفها جيداً من الزملاء. وكنا ننتظر إعلان نتيجة يانصيب . وأعلنت النتيجة وكنت الرابح وكانت الجائزة فيلا حديثة . وحصل زياط وتعليقات وتوهان . ولم تستطع وجوه كثيرة أن تخفي كمدها وقال لي كثيرون إنه فوز ولكنه خازوق من أين لك المال لتأثيثها وتوفير الخدم اللازمين لها وإستهلاكات الماء والكهرباء وخدمة حوض السباحة والتكييف إلخ ؟

الحق أن الحلم مازال حلما وها أنا أتفقد الفيلا كل يوم تقريباً وأرجع بالخيبة والحسرات . واستغل أناس قله خبرتي وأقنعوني ببيعها وإشتروها بثمن فرحت به ساعات حتي تبين لي أنني خدعت وسرقت .

وحدث في ذلك الوقت أن خلت وظيفة مدير عام وكثر التزاحم حولها والمرشحون وبطاقات ذوي النفوذ وقابلت الوزير وقلت له إنني لا وسيط لي سواه ولكنه قال لي إنك لم تستطع أن تحافظ علي مالك الخاص فكيف أأتمنك علي المال العام .

وصرت نادرة ومثالاً فطلبت ضم المدة الباقية لي في الخدمة إلي خدمتي وإحالتي إلي المعاش وأخيراً وجدت الطمأنينه في موضع لا يتطلع إليه طماع ولا ينظر إليه ذوو الطموح .

تداعيات حلم ٣٦

(الهرب من النجاح)

حين تنجح فأنت تواجه أثاراً هائلة لذلك النجاح فهناك الحاقدون عليك والمتربصون بك وهناك المشفقون عليك ، وهناك من يحاولون سرقة هذا النجاح منك .

والنجاح في حد ذاته يحتاج لمزيد من الجهد والخبرة للمحافظة عليه ، فهو يحتاج لأن تخدمه حتي يستمر وربما مع كل هذا يشعر الشخص الناجح أنه حصل

بنجاحه علي سراب وأنه نجاح وهمي لا يستحق كل هذا العناء وربما وسط هذه الأجواء يأتي من يسرق ثمرة هذا النجاح منه ويخدعه . وحين يعجز من نجح عن الإستمرار في درجته الأعلي التي هيأها له نجاحه فقد يرغب في الرجوع لدرجة أقل يستطيع التكيف مع متطلباتها ، وقد يفشل حتي في العودة إلي هذا المستوي الأدني الذي يسمح له بالتكيف (أو يضن عليه الناس به عقابا علي تفريطه في نجاحه السابق) ، وعندئذ يقرر البعد تماماً عن دائرة الصراع وينسحب بعيداً عن الحلبة ويؤثر الحياة البدائية البسيطة التي تبتعد تماماً عن المطامع والطموح ، ذلك الحل السلبي والمريح في آن واحد .

وهذا الحلم يمثل إحدي صور أزمة النمو حين يكون النجاح غير أصيل (يانصيب) فيصبح نجاحاً هشاً وهمياً لا يستفيد منه صاحبه ولا يفيد به غيره وحين يسرق منه هذا النجاح الوهمي يجد نفسه وقد عاد مضطراً إلي المستوي الأدني للوجود حيث لا مطامع ولا صراعات وبالتالي جمود وتوقف عن العمل والنجاح.

حلم ٣٧

المحمل يتمايل فوق الجمل المزين بالألوان والورود . أمامه رجل يغرس في فيه عاموداً ذا رأس تدلي منه شراشيب ورأس الجمل في مستوي أول طابق من بيت أطل أنا من نافذته وتلاقت عيني مع عين الجمل فقرأت فيها إبتسامة وغمره وحلت لي البركه فطرت من موقعي وراء النافذة ودرت حول رأس الجمل بجلبابي وشعري المنفوش وكبّر الناس وهللوا وذهلوا لوقوع المعجزة وتماديت أنا فارتفعت في الجو وتراجعت نحو سطح بيتي وهبطت وبعد مرور المحمل تجمع الناس أمام البيت يريدون مشاهدة الإنسان الطائر وإذا بهم يتحولون فجأة من الإعجاب إلي الخوف والحذر وقالوا إن روحاً شريرة حلت بالشخص الطائر وأن طيرانه حول رأس الجمل نذير شؤم للناس جميعاً وأنه يجب أن يبرأ من الشيطان ذلك بجلده حتي يتطهر تماماً فإذا رفض الدواء عرض نفسه للعقاب المناسب وهو القتل ، وركب الرعب الشاب وأسرته واستنجدت الأسرة بالشرطة واشترط المأمور أن يري المعجزة وهي تحدث أمام عينيه وذهب إلي البيت ورأي المعجزة وبهر بها حقاً ولكنه وجد نفسه بين رأيين الأسره تقول إنها كرامات الأولياء والناس تؤكد أنه عبث من الشيطان ونذير

شر . وأخيراً قرر المأمور أن يضع الشاب في السجن حتي ينسي الموضوع برمته .

تداعيات حلم ٣٧

(أزمة أولاد حارتنا وجائزة نوبل)

حين حاول قراءة المشهد الديني (المحمل) بشكل غير مألوف للناس ، ونتج عن ذلك رؤية ورواية أولاد حارتنا تلك الرواية التي طارت به إلي العالمية وهيأته لجائزة نوبل ، وبهرت الناس به ولكن هذا لم يستمر طويلاً فقد جاء وقت الإتهام بالمروق (روحاً شريرة حلت بالشخص الطائر) وطلب منه أن يتبرأ من هذه الرؤية والرواية (أن يبرأ من الشيطان) والا فسيتعرض للخطر . واشتد النزاع والخلاف حول هذا الأمر ، وأحاط الخطر بصاحب الرؤية ولم يكن هناك حل إلا أن توضع حوله الحراسة لحمايته وتحديد حركته بدعوي عدم تعرضه للخطر وهكذا أصبح مسجوناً بحراسته ، علي الرغم مما تحقق له من نجاح أدبي عالمي مبهر ومعجز.

وهذا الحلم يوضح إلي أي مدي يمكن أن يتعرض من يخالف ثوابت الناس ومعتقداتهم ورؤاهم للخطر خاصة لو حقق نجاحاً مبهراً ، فإن نجاحه لن يكون شفيعاً له عندهم ، بل إن ذلك يمكن أن يزيد المسائل تعقيداً حيث تصبح حمايته نوعاً من القيد عليه يخنقه .

والناس من ناحية أخري لديها احتياج للإعتقاد في ثوابت معينة ، فإذا جاء من يحرك هذه الثوابت بأي شكل وفي أي اتجاه ، أو يراها من زوايا أخري ، أو يتجاوزها (بالطيران فوقها) ، أو يعيد إدراكها من مستويات متعددة (وتلاقت عيني مع عين الجمل ..... ودرت حول رأس الجمل ..... وتماديت أنا فارتفعت في الجو .... وتراجعت نحو سطح بيتي وهبطت) .

وهذا الحلم يمثل إشكالية المبدع مع المقدس ، فالناس تدرك الأشياء من مستوي معين للوعي ، ولكن المبدع يحاول الإدراك من مستويات متعددة ومن زوايا مختلفة للرؤية ، وربما نفذ (أو ظن أنه نفذ) إلي جوهر الأشياء ، ذلك الجوهر الذي لايراه الناس من مستوي إدراكهم (وتلاقت عيني مع عين الجمل فقرأت فيها ابتسامة وغمزة) . والمبدع يحاول أن يخترق حاجز المجهول من خلال رؤية

خارقة (ورأس الجمل في مستوي أول طابق من بيت أطل أنا من نافذته) .

والرؤية الفنية الإبداعية الخارقة لحدود المألوف لدي عموم الناس في مستويات وعيهم الحياتية ، وغير المفهومة علي مستوي السلطة (واشترط المأمور أن يري المعجزة تحدث أمام عينيه) تعرض صاحبها للإتهام بالجنون أو مس الجن أو المروق ، وربما تعرضه للقتل (كما حدث للحلاج و وكاد أن يحدث لابن عربي ونجيب محفوظ) . فاختلاف مستويات الإدراك يجعل الرؤي متباينة واللغة مختلفة، ومحاكمة رؤية فنية أو أدبية أو فلسفية أو صوفية بمنهج عقلي أو نقلي أو ديني أو سلطوي يؤدي بالضرورة إلي اختلاف واختلال في الرؤي (الأسرة تقول إنها كرامة من كرامات الأولياء والناس تؤكد أنه عبث من الشيطان ونذير شر)

حلــم ٣٨

في حجرتي جالس أستمع إلي أغنيه يذيعها الفونوغراف . دخلت من الباب المفتوح فتاة في العشرين جميلة ورشيقة ومثيرة . اكتسحتني دهشة ورغبة فقمت من مجلسي واتجهت نحوها حتي وقفت قبالتها . وبهدوء مدت يدها بخطاب فتناولته ونظرت فيه ثم رددته إليها وأنا أقول لها إنني لا أستطيع القراءة لضعف بصري وطلبت منها أن تقرأه هي ولكنها اعتذرت بأنها لا تقرأ ولا تكتب وأن والدها كتبه للأمير المسطر أسمه علي الظرف ووصاها والدها قبل وفاته بأن تجيئني بالخطاب لأحمله إلي الأمير . وقلت لها ودهشتي تتزايد إنني لا أعرف الأمير ولا أي أمير غيره وساورني الإرتياب من ناحيتها وحاولت تغيير الموضوع ولكنها ذهبت .

وعندما كنت أعبر جسر قصر النيل في طريقي إلي عملي ظهرت لي عند نهايته فتجاهلتها ولكنها تبعتني مسافة غير قصيرة .

وعندما عدت إلي مسكني وجدتها مستقرة . حذرتها من أن تعود إلي موضوع الخطاب والأمير . ومر وقت طيب ولكني لم أخل من الوساوس. والظاهر أنها لم تخل كذلك من مخاوف . وكان واضحاً أننا نريد الهرب بطريقة أو بأخري .

تداعيات حلم ٣٨

(المفكر والناس والسلطة)

المفكر يريد أن يخلو إلي نفسه وإلي تأملاته وحياته الخاصة العذبة بعيداً عن مشكلات الحياه اليوميه ومطالبها ومتطلباتها (في حجرتي جالس أستمع إلي أغنية يذيعها الفونوغراف) . ولكن الحياة بما فيها من مغريات وتطلعات وتعلقات تشده إليها (اكتسحتني دهشة ورغبة فقمت من مجلسي واتجهت إليها) ، وربما تضغط عليه للتطلع إلي أصحاب السلطة وهو لا يرغب في ذلك . يضاف إلي ذلك المعني أن الناس ربما تظن أن المفكر بما له من مكانة فكرية وإجتماعية مرموقة يستطيع قراءة أمانيهم وأحلامهم وتوصيلها إلي صاحب السلطة (الأمير) ولذلك يلحون عليه ويطاردونه ويضغطون عليه للقيام بهذا الدور ولكنه لا يستطيع ذلك (أو لا يريده) ، ومن هنا تنشأ علاقة مملوءة بالإشكالات والإلتباسات بين المفكر والناس من جهة وبين المفكر والسلطة من جهة أخري .

ومن مستوي آخر للرؤية نري تلك العلاقة المقطوعة بين الأجيال من ناحية ، والعلاقة المقطوعة بين المفكر والسلطة من ناحية أخري ، ووجود حواجز متعددة للتواصل والفهم (ثم رددته إليها وأنا أقول لها إنني لا أستطيع القراءة لضعف بصري ... ولكنها اعتذرت بأنها لا تقرأ ولا تكتب .... وقلت لها ودهشتي تتزأيد إنني لا أعرف الأمير ولا أي أمير غيره) .

ولا يخفي هنا حالة الإعتمادية المتبادلة فالأب أجّل توصيل الرسالة إلا ما بعد موته ، وابنته تريد أن تلقي بالتبعة علي جيل سابق ، والجيل السابق يتهرب ، والخوف والشك يساور الجميع ، والتعلق بتحقيق الأحلام عن طريق السلطة يراود الجميع ويعوقهم ويحول دون نموهم وحركتهم .

حلـم ٣٩

دخلت حجرة الوزير ومعي بيان مكتوب علي الآلة الكاتبة بأسماء الموظفين المرشحين للترقية . إسمي بينهم وواضح أن الوزير يخصني بالرعاية .

وقع الوزير البيان في أعلاه وذهبت به إلي إدارة المستخدمين لتنفيذه . اتجهت إلي الموظف المختص وكانت فتاة شابة وجميلة ، نظرت في البيان ولاحظت أن الوزير وضع إمضاءه في أعلاه وأنه يجب أن يضعه في أسفله . وإلا فإنها لن تستطيع تنفيذ أمر الترقية أو علي الموظفين المسجلين في أعلاه . إغتظت وشكوت ما نلاقي من الروتين ولكنها أصرتّ علي موقفها فحملت البيان من جديد إلي الوزير فوقع اسمه في الموضع الصحيح وهو يضحك ورجعت إلي الفتاة وسلمتها البيان وكانت تجلس علي يمين مكتبها موظفة صديقة معروفة بالمرح فدافعت عن تصرف زميلتها قائلة إنها تضن بالترقية علي الموظفين العزّاب وتري أن المتزوجين أولي بها . وتظاهرت الموظفة بأنها تضايقت من إذاعة هذا السر ، ولما قابلتني الموظفة المرحة بعد ذلك سألتني عن رأيي في موظفة المستخدمين فصارحتها بأنها أعجبتني فاقترحت أن تبلغها بإعجابي كمقدمة لجمع رأسين في الحلال . فطلبت مهلة للتفكير فقالت إنني لم أعد شاباً وإن عمري يضيع في التفكير وأصرت علي إبلاغها واستسلمت فلم أرفض .

تداعيات حلم ٣٩

(ما نريده وما يريده القدر)

أحياناً نمشي في طريق ونسعي نحو هدف معين نشتاق جداً للوصول إليه ولكن أثناء هذا السعي تستوقفنا أشياء لم تكن في الحسبان فنعتقد أنها عقبات في الطريق لأنها تعطلنا عن الوصول للهدف المقصود ولكن ربما نكتشف أن ما تعطلنا عنده يكشف لنا احتياجات وأهداف أكثر أهمية .

فالموظف المشتاق للترقية الوظيفية قد نسي أنه تقدم في العمر ، وحين تعقد موضوع الترقية (لسبب غير مفهوم وهوتوقيع الوزير في أعلي البيان وليس في أسفله كما هو معتاد ومعروف حتي لصغار الموظفين ، وكأنما القدر يحرك الأحداث

بشكل غامض لا نفهمه ولا نجد له تبريرا منطقيا) ، واصطدم بعقبة الموظفة الجميلة المصرة علي الروتين واللوائح (والتي تحمل في داخلها غضبا علي العزّاب من الرجال ، أو ربما غيظا منهم لتركها وإهمالها) ، اكتشف هو أن بداخله شيء ما نحوها أسماه إعجاباً ولكنه لم يكن لينتبه إليه لولا هذا الموقف المتعنت والمتعصب منها ، ولولا تسهيل من طرف ثالث (الموظفة المرحة) وهنا يتوقف التردد ويتحول القصد والهدف لما هو أجدي وأنفع وأولي .

وهذه الفكرة وردت في قصه الكيميائي (ساحر الصحراء) لباولو كويلهو الكاتب البرازيلي ، حين صور شاباً أسبانياً يترك بلدته قاصداً أرض مصر ليبحث عن كنز مدفون في الصحراء المحيطة بالأهرامات ، وفي الطريق تقابله مصاعب ومتاعب يشعر بالضجر حيالها ولكنه بعد فترة يكتشف أن الكنز ليس بالضرورة في نهاية الطريق بل قد يكون في الطريق نفسه وما حدث فيه من أشياء لم تكن له في الحسبان .

ويبدو أن دوافعنا الداخلية الأعمق تحركنا في اتجاهات غير مفهومة لنا علي مستوي رؤانا العادية فتوجهنا إلي حيث نريد حقيقة وفعلا .

ومن زاوية أخري قد تنشأ المشاعر من ضدها فموظفة المستخدمين الجميلة تبدي تعنتا وتحيزا ضد العزاب من الرجال في حين هي تحمل في أعماقها رغبة في الإقتراب وعتابا علي الإهمال والبعاد ، والموظف (طالب الترقية) يشعر بالغضب منها وفي ذات الوقت يحمل في مستوياته الأعمق حالة من الإعجاب بها ، وربما يفسر هذا المثل الشعبي ما محبة إلا بعد عداوة ، فالمحبة تحمل في رحمها العداوة والعكس .

حلم ٤٠

قبيل المساء وأنا عائد إلي بيتي متدثراً بالمعطف والكوفيه اعترض سبيلي صبي وصبية غاية في الجمال والتعاسة وطلبا مني ما أجود به لوجه الله وبحثت في جيبي عن فكة فلم أجد فأخرجت ورقة من ذات الجنيهات الخمسة وطلبت من الصبي أن يذهب إلي أقرب كشك ويشتري لي قطعة شيكولاته ويجيئني بالباقي .

وما غاب الصبي عن عيني حتي بكت الصبية واعترفت لي بان أخاها يعاملها بغضب شديد ويدفعها لارتكاب الأخطاء فهي تزداد كل يوم انحرافاً وشراً وتدعو الله أن ينقذها مما تعاني ، تأثرت وتحيرت ثم عرفت أن الصبي لن يعود وأدركت مدي حماقتي لما أوليته من ثقة وتذكرت كيف يتهمني أهلي بالطيبة والغفلة . ولكني لم أترك له أخته وأخذتها إلي بيتي لتبدأ حياة جديدة مع أهلي . وتحسنت أحوالها وبدت وكأنها من الأسرة لا شغالة لها .

وذات يوم جاء لي شرطي ومعه الصبي الأخ ولما رأي أخته أمسك بها وعلمت أني مطلوب في القسم . وهناك وجّهت إلي تهمة اغتصاب البنت والإحتفاظ بها في بيتي بالقوة . وذهلت أمام ما يوجه إلي وطلبت من البنت أن تتكلم فبكت ووجهت إلي من الكبائر ما لم يخطر لي علي بال . وكان المحضر يسجل كل كلمة والدنيا تسود في عيني وعلي الرغم من إيماني الراسخ فلم تغب عني خطورة الموقف .

تداعيات حلم ٤٠

(النوايا والمصير)

قد نولي مسألة النوايا الحسنة (أو التي تبدو حسنة في الظاهر) أهمية كبيرة ونرتب عليها قرارات مصيرية معتقدين بأن حسن النية يشفع لنا عند أنفسنا أولاً وعند الناس ثانياً ، وقد تكون النية حسنة فعلاً وحقيقة وقد تكون خداعاً نفسياً يبرر لنا ما نريد فعله تحت ستار يبدو خيّراً ولكنه يخفي احتياجات ذاتية ، فليس من المستبعد أن فاعل الخير (في الحلم) أعجبه جمال الصبية (اعترض سبيلي صبي وصبية غاية في الجمال والتعاسة) فأعطي لأخيها الجنيهات الخمسة لكي يثير طمعه ويتخلص من وجوده ومن تعاسته ، وحين أصبحت الصبية (الجميلة) وحدها كان ذلك مبرراً له ليأخذها لبيته بحجه رعايتها (يحدث هذا بحسن نية في الظاهر وبنية أخري في طبقات خفية من الوعي) . وحين تحتدم الأمور يأتي أصحاب النوايا السيئة ظاهرا وباطنا (الصبي) ليتهموا أصحاب النوايا الطيبة (ظاهريا) وقد يبدو ذلك إبتزازاً ولكنه من ناحية أخري قد يكون إسقاطاً من أصحاب النوايا السيئة أو يكون بصيرة منهم بما دار في طبقات وعي من يبدون أصحاب نوايا حسنة .

وعلي أية حال فالقانون البشري لا يحاسب علي النوايا وإنما يحاسب علي الأفعال الظاهرة ثم تترك النوايا المخبأة في طبقات الوعي الغائرة لتقدير من يعلم بها .

فسلوكنا الظاهر لا تحركه – فقط – حساباتنا العقلية المنطقية في مستواها السطحي أو العرضي ، وإنما تحركها ميول غير واعية رابضة في طبقات الوعي الأعمق ، وهذا ما يجعل العدل المطلق في الحياة أمرا بعيد المنال .

حلـم ٤١

قال لي السمسار : لا تضجر ولا تيأس يلزمك الصبر الجميل . وكنت أعرف أنه علي علم بسر قلقي وأنني مهدد بأن أفقد المأوي وأجد نفسي في الطريق. قلت له بأنني رأيت من المساكن عدد شعر رأسي ولكن الأسعار دائماً فوق قدرتي . وما هذه المساكن الخياليه التي يقدر ثمن الشقه فيها بالمليون . والعجيب أنه أكد لي أربع زميلات لي يملكن شققاً في هذه المساكن الخيالية. وغبطهن علي قدراتهن الخارقة وقال لي الرجل إن الأمل الأخير في عمارة الحاج علي بحي الحسين وأن علينا أن ننتظر عودته من الحج وقلت له إنني أذكره من أيام إقامتنا في الحي العتيق وإنني كنت أشتري منه الفول أحياناً بنفسي فضحك الرجل وقال إن هذا ما يقوله الكثيرون ممن يرجون إمتلاك شقة في عمارته الجديدة .

قلت بخوف : إنه الأمل الأخير

فقال بلهجة مشجعة عليك بالصبر الجميل

تداعيات حلم ٤١

(الصبر الجميل)

أحياناً نرفع شعار الصبر الجميل لتبرير توقفنا عن النمو وعجزنا عن الحركة وتحقيق الأهداف المشروعة وتوفير الإحتياجات الأساسية ، ونحن نري الدنيا تتحرك حولنا بسرعة والناس تنمو وتتغير (زميلاته في العمل تملكن شققا في مساكن خيالية) ، والحاج عليّ بائع الفول في حي الحسين قد علا ونما وبني عمارة وتحرك وذهب للحج) ونحن واقفين مكاننا نستشعر الخوف والقلق فنلجأ إلي الصبر الجميل

لكي يطفيء هذه المشاعر ويطفيء معها دوافع النمو والحركة والصعود تحت وهم أننا صابرون ولسنا عاجزون أو مستسلمون .

ويبدو أن السمسار قد اكتشف القانون الذي يسير عليه ذلك الباحث عن شقة متواضعة (مكانة متواضعة في الحياة) فذكره له في بدايه الحلم وفي نهايته عليك بالصبر الجميل وقد يبدو هذا سخرية أو يبدو تأكيداً منه لقانون ذلك الشخص أو قانوناً يسود مفاهيم الناس حين تعجز ليبرر العجز والسلبية ويجعلهما محتملين نفسياً ومتجملين اجتماعياً ودينياً ، ولكن الحلم يضرب كل هذه التبريرات فيكشف أن زميلاته في نفس العمل (وهن إناث) قد استطعن الحصول علي شقق فاخرة (مكانة مميزة في الحياة) ، وأن الحاج علي بائع الفول في حي الحسين قد تطور هو الآخر وبني عمارة ، ومع ذلك فهو يحج بيت الله الحرام . وحين بدأت تتكشف هذه الأمور وتزال الستائر والتبريرات ويظهر الشعور المحفز بالخوف عاود السمسار (من يزين الأمور ويبررها ويسهلها) تخديره بالنصيحة المنومة أو المخدرة اللذيذة : عليك بالصبر لجميل.

حلم ٤٢

السفينة تشق طريقها بين أمواج النيل الرزينه نحن جلوس علي صورة دائرة يقف في مركزها الأستاذ . وضح أننا نؤدي الإمتحان النهائي وكان مستوي الإجابات ممتازاً وتفرقنا نشرب الشاي ونأكل الجاتوه وتسلمنا شهادات النجاح وعند المرسي وقفت السفينة وغادرناها وكل يحمل شهادته في مظروف كبير . ووجدت نفسي أسير في شارع عريض خال من المباني ومن المارة . ولاح لي مسجد يقوم وحيداً فاتجهت نحوه لأصلي وأرتاح قليلاً ولكن تبين لي حال دخولي أنه بيت قديم هممت بالرجوع ولكن جماعة من قطاع الطريق أحاطوا بي وأخذو الشهادة والساعة والمحفظة وانهالوا علي ضرباً ثم اختفوا في أرجاء البيت .

خرجت إلي الطريق وأنا لا أصدق بالنجاة . وبعد مسيرة يسيرة صادفتني دورية من الشرطة فهرعت إليهم وحكيت لقائدهم ما وقع لي .

وسرنا جميعاً نحو بيت اللصوص واندفعوا داخلين شاهري أسلحتهم ولكننا

وجدنا أنفسنا في مسجد والناس يصلون وراء الإمام وحصل ذهول وتراجعنا مسرعين وأمر قائد الدورية بإلقاء القبض عليّ . وجعلت أؤكد ما وقع لي وأقسم بأغلظ الإيمان ولكن وضح لي أنهم أخذوا يشكون في عقلي علي أني لم أكن دونهم حيرة وذهولاً .

تداعيات حلم ٤٢

(التدين الكاذب والكذب المتدين)

عاشت مصر في أحضان النيل حياة هادئة (السفينة تشق طريقها بين أمواج النيل الرزينة) ، وعاش أهلها ملتفين حول رموز العلم (جلوس علي صورة دائرة يقف في مركزها الأستاذ) . وقد نجح المصريون في بناء حضارة ممتازة ومتميزة (كان مستوي الإجابات ممتازا) ، وسعدوا بذلك علي مستوياتهم الإجتماعية المختلفة (وتفرقنا نشرب الشاي ونأكل الجاتوه) ، وشهد لهم التاريخ بالتفوق الحضاري (وتسلمنا شهادات النجاح) .

ثم حدث أن اختلط الحابل بالنابل وظهرت توجهات دينية مختلطة ومشوشة وأحياناً نفعية وكاذبة ، والمسجد الذي تحول إلي بيت قديم ربما إشارة إلي التوجهات الدينية العائدة دوماً إلي الماضي ، ثم قطاع الطريق الذين استغلوا المسجد (أو شكل المسجد) للإيقاع بالضحايا وسلبهم ما يملكون إشارة إلي ذلك النوع من التدين النفعي الذي انتشر بين الناس حيث يتوشحون بالمظاهر الدينية بحثاً عن مصداقية لدي الناس تمكنهم من تحقيق أهدافهم الذاتية والخفية والنفعية ، وهم يريدون تجريد مصر من التميز والحضاري (أخذوا الشهادة) ، وأن يسقطوا البعد الزمني (الساعة) ، وأن يسلبوا التاريخ ويسرقوا المال والتراث الحضاري (المحفظة) ، وهم يمارسون في سبيل ذلك العنف والترويع (وانهالوا عليّ ضربا) ، ويتسترون بالدين (اختفوا في أرجاء البيت) .

وعند محاصرة بيت اللصوص (أو ما يظن أنه بيت اللصوص) بواسطة السلطة يتضح أنه مسجد والناس يصلون فيه ، وهنا تحدث الحيرة والإرتباك ، فربما تخفي اللصوص مرة أخري تحت ستار ديني أو ربما يتم في هذا الجو المتشابك مهاجمة رموز دينية حقيقية وأصيلة تحت دعوي محاربة الإرهاب ، وهذه هي

الأزمة (والفتنة) التي خلقها التدين الكاذب والكذب المتظاهر بالتدين حيث جعل الأمور تختلط ويدخل الحابل في النابل ويصبح من العسير أحياناً التفرقة بين هذا وذاك ، وتلك أزمه يعيشها الشعب المصري في تعامله مع موضوع شديد الحيوية لديه وهو الدين .

حلـم ٤٣

ليلة زفاف ابن عمي تقام في بيتنا بالعباسية بين الطبل والأغاني يتقدم ابن عمي تتأبط ذراعه عروسه في حلة العرس . وقبل أن يصعدا السلم إلي الداخل يعترضها مفتش الشرطه. ذهلنا وتساءلنا عما وراء ذلك . انقض المفتش علي العروس فتفحص وجهها وأخذ بصمتها علي لوح صغير وفحصه بمنظار مكبر وألقي القبض عليها وسار بها إلي سيارة الشرطه وأدرك الجميع ما يعنيه ذلك وأقبلوا علي ابن عمي يواسونه ويحمدون الله الذي نجاه من شر أوشك أن يطوقه ، ورغم ذلك فقد مضي الشاب وهو يبكي . وقررت أن أمضي الليله في بيت العباسية مع أهلي ولكني اكتشفت أن جميع مصابيحه الكهربائية معطلة . فسألت أختي كيف يعيشون في الظلام . واكتشفت أيضاً أن جدرانه تحتاج إلي ترميم ودهان وضقت بالمكان ونويت أن أصلحه وأعيده إلي رونقه القديم .

تداعيات حلم ٤٣

(الحل الأمنى المفرط ... والحاجة للإصلاح)

علي الرغم من الوظيفة المهمة التي يقوم بها الأمن ورجاله في أي مجتمع إلا أن التدخل المفرط للأمن في حياة الناس (والإكتفاء بالحلول الأمنية) قد يفسدها ويحول الأفراح إلي أحزان ويطفيء الأنوار في المجتمع بأكمله ويدعه يعيش في ظلمة وظلم (وقررت أن أمضي الليلة في بيت العباسية ولكني اكتشفت أن جميع مصابيحه الكهربائية معطلة) ، ويخطف السعادة من القلوب .

يبدو أن هذا الأمر قد ساد في المجتمع المصري (يعبر عنه بـ : بيتنا بالعباسيه) فالأمن يلاحق الناس بشكل مفرط حتي في لحظات فرحهم وهو في اندفاعه لتحقيق أهدافه (المشروعة أو غير المشروعة) لا يحسن اختيار التوقيت أو

الظروف المناسبه لأداء مهامه ، وهذا التدخل الأمني المفرط قد ترك آثاراً حزينة في نفوس الناس (مضي الشاب وهو يبكي) ، وجعلهم يشعرون بالضيق في وطنهم ويضعف إنتماؤهم نحوه ، وهذا ما يدفع بعض المصلحين إلي البحث عن وسيلة لإصلاح هذا الخلل الذي يشوه الحياة ويجعل مذاقها مراً (واكتشفت أن جدرانه تحتاج إلي ترميم ودهان .. وضقت بالمكان ونويت أن أصلحه ، وأعيده إلي رونقه القديم) .

والتدخل الأمني السافر وغير الحكيم هنا لا يعني حفظ الأمن والنظام واتخاذ التدابير العاقلة الرشيدة لتحقيق ذلك وإنما يعني الإندفاع غير المبرر وأخذ الناس بالشبهات ، وعدم تقدير العواقب والظروف والأحوال الإجتماعيه والنفسيه للناس والأثار العامه التي تنشأ عن هذا البطش البوليسي من ضعف الإنتماء والإحساس بالغربة والإغتراب ، والظلمة والظلم داخل الوطن .

حلـــم ٤٤

وجدت نفسي جالساً أمام مكتب وزير الداخلية . منذ أيام قلائل كان زميلي في الجريدة وكان إختياره وزيراً للداخليه مفاجأه وإنتهزت الفرصة وطلبت مقابلته فاستقبلني بمودة وترحاب وعرضت عليه مطلبي وهو توصية لرجل أعمال معروف بصداقته له فاختاره في وظيفة معينة في شركة من شركاته وكتب بخط يده التوصية المطلوبة وإنتهت المقابلة علي أحسن حال . وفي مساء اليوم نفسه وأنا أمشي علي شاطيء النيل اعترضني رجل ممن نسمع عنهم في الصحف وأشهر علي سلاحاً وسلب مني نقودي . كانت في حدود خمسين جنيهاً .

رجعت إلي منزلي مضطرباً ولكني لم أتخذ أي إجراء يؤثر في الميعاد الذي حدده لي رجل الأعمال . وعند الضحي كنت في مكتبه وبعد دقائق سمح لي بالدخول في مكتبه وقدمت التوصية ، تجمدت في موقفي وكانت لحظة غاية في الحرج قلت في نفسي رباه إنه اللص الذي سرقني أو أخوه التوأم ودارت بي الأرض .

تداعيات حلم ٤٤

(العلاقة الملتبسة بين السلطة والصحافة ورأس المال)

يلاحظ في هذا الحلم تلميح رقيق إلي كيفية إختيار المسئول حتي في أخطر المواقع وأشدها حساسية فها هو وزير الداخليه يتم اختياره فجأة من بين الصحفيين فهل كان رجل أمن متخفياً في صورة صحفي ، أم أنه صحفي أدي خدمات أمنية سرية يستحق عليها المكافأة بهذا المنصب الحسّاس ، أم أن إختياره جاء عشوائياً كيفما تفق ؟!!!!!!! ، كل هذه الإحتمالات واردة ، ولا يوجد فيها أي احتمال إيجابي. يضاف إلي ذلك تلك العلاقة القائمة بين جال الأعمال والسلطة ، فها هو وزير الداخلية المختار والذي كان يعمل بالصحافة نجد له أدواراً أخري متعددة ، فقد عينه رجل أعمال في وظيفة معينة (تركت مجهولة لتثير الريبة والتساؤل) في شركة من شركاته قبل ذلك ومازالت تربطهما علاقات صداقة ومصالح وتوصيات متبادلة. ثم تحدث نقلة نوعية ومفاجئة في الحلم (كعادة الحلم) لتلقي مزيداً من الضوء الساطع ولكن بشكل رقيق (كما هي عادة نجيب محفوظ) حين يتضح أن اللص الذي سرق نقوده علي شاطيء النيل هو نفسه رجل الأعمال الذي ذهب إليه لقضاء حاجة منه ، وهو نفسه صديق وزير الداخلية ورئيسه السابق حين كان يعمل في إحدي شركاته .

وحين تجتمع جزئيات الحلم المتناثره تشير إلي حالة من اللصوصية الخفية تشمل مستويات مهمة وحساسة (حاميها حراميها) ، وتجعل الشعور بالأمان أمراً محالاً وفي هذا الحلم (وفي غيره) تتبدي عظمة نجيب محفوظ في قدرته علي النقد في أقصي درجاته ولكن في أسلوب رمزي هاديء ورقيق ونافذ في ذات الوقت. ونود أن نلفت نظر القاريء الكريم إلي أن هذا المعني (تفشي حالة اللصوصية والفساد ووصولهما إلي من بيدهم حفظ الأمن وحفظ الحقوق) قد ورد قبل ذلك في حلم رقم ٢٤ فليرجع إليه من يريد .

حلـم ٤٥

علي سطح البحيرة ينطلق قاربي البخاري وذاك قارب آخر يتبعني أو هكذا خيل إليّ . وأسرع فيسرع وساورني القلق . ولكن لماذا يتبعني ؟

ووجدتني أقترب من مرسي فخم فرسوت وصعدت سلماً إلي شرفة واسعة وعرفت أنها تتبع السفارة الروسية وكانت الشرفة مليئة بالمعزين الذين جاءوا يعزون في وفاة فقيدة عزيزة.

وسلمت علي السفير وجلست أسمع ما يقال عن الفقيدة وأنظر إلي البحيرة فلا أري أثراً للقارب الآخر فإطمأن قلبي .

وقمت في الوقت المناسب إلي قاربي وانطلق بي في اتجاه الشاطيء الآخر ونظرت خلفي فرأيت القارب الغريب وهو ينطلق ورائي وكنت بلغت وسط البحيرة فرأيت من الأفضل أن أسير إلي الشاطيء عن الرجوع إلي السفارة وقلت إنه عند الشاطيء تتضح حقيقة الموقف للمواجهة بكل قوة .

تداعيات حلم ٤٥

(الرقابة المستفزة على التوجهات والأفكار)

في دول العالم الثالث شغف واهتمام بالرقابة علي توجهات الناس ومعتقداتهم وأفكارهم أيا كانت هذه التوجهات أو المعقدات أو الأفكار وها هو صاحب الحلم حين كانت توجهاته نحو اليسار (السفارة السوفيتيه كرمز) وجد من يتتبعه ويراقبه علي الرغم من أن هذا الإتجاه قد مات في بلده الأصلي (وكانت الشرفة مليئة بالمعزين الذين جاءوا يعزون في وفاة فقيدة عزيزة) ، وحين اطمأن الرقيب إلي أن هذا الإتجاه قد مات اختفي مؤقتاً ولكنه عاود الظهور مرة أخري حين وجد صاحب الحلم يتجه نحو الشاطيء الآخر (ربما إشارة إلي الإتجاه اليميني) وعادت الرقابة من جديد وعاد التتبع وكأن هناك خوف دائم من أن يكون للناس اتجاه أيا كان هذا الإتجاه ، وأن الرقابة (والمراقبة والتتبع والتجسس) لا تتوقف إلا في حالة الموت والعدم . وهنا يقرر الحالم الوصول إلي الشاطيء لكي تتم المواجهة بقوة علي غير ما

اعتدنا من دبلوماسية الحالم ورقته ومسالمته (علي الأقل ظاهرياً) ، وربما في هذا إشارة إلي أن الأفكار والمعتقدات والإتجاهات لا تحتمل المساومة ولا تحتمل التفريط فيها ، فهي حق إنساني يجب الدفاع عنه ضد أي إنتهاك أو وصاية ، وكأن هذا هو الحد الأدني للحقوق الإنسانية الذي لا يقبل المساومة أو التفريط أو الحلول الوسط .

حلـــم ٤٦

جمعتنا حديقة . درج صاحبنا يغني ونحن نسمع ونطرب ويعلو منا هتاف الوجد والإستحسان . وأزعجنا العباد فشكونا إلي الشرطة . ورأينا الشرطة قادمه فتفرقنا لائذين بالفرار . جريت في الإتجاه الذي اتفق وكلما نظرت خلفي رأيت الشرطي يجري في أثري بكل قوة وإصرار وظهر لي شخص يجري أمامي وكأنه يفر مني . من يكون ذلك الشخص ؟

ذكرتني رشاقته وجميل قوامه بالحبيبة الغائبة . أطّرد الجري . الشرطي يريد اللحاق بي وأنا أري أن أهرب منه وألحق بالحبيبة . وهكذا صعدنا البرج وفوق سطحه منتني النفس باحتضان حبيبتي ولكنها تخطت السور وهوت من ذلك العلو الشاهق إلي الأرض . فقدت عقلي وزاد من تعاستي اقتراب الشرطي فوثبت من فوق السور وراء حبيبتي وتوقعت أفظع ألم وكان لارتطامي بالأرض دوي مثل قنبلة لكني لم أشعر بأي ألم . وقمت واقفاً في تمام الصحه تلفت فلم أجد لحبيبتى أثراً ونظرت إلي أعلي البرج فرأيت الشرطي يطل علينا وهو يغرق في الضحك.

تداعيات حلم ٤٦

(بين الخوف والرجاء)

هذا الحلم يعكس العلاقه بين رغبات الإنسان (الغناء والطرب واحتضان الحبيب) وبين الرقابة النفسية الداخلية (الضمير – الأنا الأعلي) والرقابة الإجتماعية (الناس الآخرين والشرطه) ، وهذه العلاقة تتبدي في حركة الإنسان الدائمة نحو رغباته (جريه وراء الحبيبة يحاول اللحاق بها) في ذات الوقت الذي تلاحقه عين الرقيب (الشرطي الذي يجري خلفه) ، ولكي تستمر الحياة فإننا لا نلحق برغباتنا فنمسكها وفي ذات الوقت لا يلحق بنا الرقيب فيمسكنا ونظل نمارس هذه اللعبة

(عسكر وحراميه) داخل أنفسنا وداخل المجتمع وداخل الحياه .

والإنسان يتحرك في الحياة هربا وخوفا من شئ وسعيا وحبا تجاه شئ آخر ، ويكتشف الإنسان في لحظة ما أن ما يخاف منه لايلحقه ولا يضره ، وأن ما كان يسعي إليه لا يناله ، ولكن مع هذا فإن الخوف والرجاء يحركان الإنسان بعيدا عما يخاف وسعيا نحو ما يرجو.

حلــم ٤٧

في الطريق لعب أمامي مجموعة من الصبية فشعرت أنهم يضمرون لي السوء . وعجبت لأنه لم يحصل بيني وبينهم ما يدعو إلي ذلك . وسرت في حذر وأنا أتذكر بدهشة حالي عندما كنت في سنهم .

ووجدت أمامي محلاً كبيراً يعد ليكون محلاً لبيع الحلوي كما فهمت من لافتته الكبيره وكان العمل علي أشده في إعداده فاقتربت منهم وسألتهم هل ستقدمون ضمن الحلوي بقلاوة وكنافة وكف العمال عن العمل واتجهوا بأنظارهم نحوي وعلي حين قهقه الصبية وصفروا . وجاء من أقصي المحل رجل بدا أنه صاحبه وسأل هل حقاً ما زال يوجد أناس يحبون البقلاوة والكنافة ؟ وسرت بين العمال همهمة وراح الصبية يرقصون ويصفرون ويكورون قبضات أيديهم في وجهي.

تداعيات حلم ٤٧

(بين الأصالة والمجهول)

لدينا خوف مجهول من الجديد (مجموعة من الصبية ... فشعرت أنهم يضمرون لي السوء) وحذر في التعامل معه (وسرت في حذر) ، علي الرغم من أن كل قديم في حياتنا كان جديدا في وقت من الأوقات (وأنا أتذكر بدهشة حالي عندما كنت في سنهم) .

ثم ينتقل الحالم إلي لقطة أخري تعمق المعني حين يتجه إلي محل بيع الحلوي ويسألهم عن الحلوي الشرقيه التقليديه التي تعودها (البقلاوة والكنافة)

ولكنهم يستغربون ذلك السؤال منه ويظهر صاحب المحل ليسأله هل حقاً ما زال يوجد أناس يحبون البقلاوة والكنافة ، وفي هذا السؤال استغراب ممن يتمسكون بالأصاله وتقرير بأن الناس هي التي سئمت تلك الأصالة وفرضت علي مقدمي الأفكار ذوقاً أخر . ومن براعة الحلم أنه لم يحدد البديل الذي يقدمه محل الحلوي وتركه مجهولاً وكأنما حين عزف الناس عن الأصالة لم يعرفوا بالتحديد إلي أين يذهبون ، المهم أن يكون ثمة جديد ، أما الشباب منهم فقد اتجهوا للعبث والتفاهة والسخرية من المتمسكين بالأصالة .

إذن فهذا الحلم يصحح مفهوماً سائداً وخادعاً وهو أننا حائرون بين الأصالة والمعاصرة ، في حين أننا حائرون بين الأصالة والعبث ، أو في أحسن الأحول بين الأصالة والمجهول .

حلم ٤٨

أقبلت فوجدت في الحجرة الحرافيش وسألت عن الغائب الوحيد فقالوا إنهم أرسلوا إلي الموسيقار سيد درويش في طلب فرقة الباليه الجديدة ولا أدري كيف فسد الجو بيني وبينهم وتجهمت وجوههم جميعاً وهممت بمغادرة المكان ولكن فرقة الباليه وصلت وفي الحال عزفت الموسيقي ودار الرقص وخف التوتر بيننا واندمجنا في الرقص والنغم بل وصفت القلوب وانهالت علينا النشوات وغمرنا الحب والمودة .

وإذا بنا ننضم إلي فريق الراقصين والراقصات ونشارك في الأناشيد والأغاني وتعاهدنا دون كلام علي أن نؤرخ تلك الليلة .

تداعيات حلم ٤٨

(الجديد قادم لا محالة)

نألف الفن القديم ، والعادات القديمة ، والصحبة القديمة ، والذكريات القديمة، ونشعر بالأنس والمحبة والطرب لكل ذلك (سيد درويش كعلامة رمزية علي كل أصيل وقديم وجميل ومألوف) ، ويتشكل وجداننا طبقاً لذلك ، فإذا حدث تغيير ودخل علينا شيء جديد (فرقة الباليه الجديدة) شعرنا بالقلق والتجهم ، وفسد الجو

بيننا لفترة ، ثم ما نلبث أن نألف الجديد ونندمج معه شيئاً فشيئاً (ودار الرقص وخف التوتر بيننا واندمجنا في الرقص والنغم بل وصفت القلوب وإنهالت علينا النشوات وغمرنا الحب والمودة) .

ولا يتوقف الأمر علي القبول بالجديد رغم المقاومة المبدئية الشديدة له بل نجد أولئك الرافضين مشاركين بعد فترة في صنع هذا الجديد وتدعيمه (وإذا بنا ننضم إلي فريق الراقصين والراقصات ونشارك في الأناشيد والأغاني) ، ليس هذا فقط بل يصبح الجديد جزءاً من التاريخ يفخر به الناس (وتعاهدنا دون كلام علي أن نؤرخ تلك الليله) .

وهذا الموقف يبدو أنه يتكرر مع كل فكر جديد أو حدث جديد أو اسلوب جديد في العمل أو في الحياة ، حيث يظهر القلق ويحدث الرفض تجاه الجديد ثم يحدث القبول علي مضض ، ثم يصبح قبولا بغير مضض ، يليه القبول والرضي ، ثم يحدث الإندماج في الجديد وفي النهاية نصل إلي الفخر بهذا الجديد لكي ننتقل إلي جديد أخر نبدأ معه الرحلة من البداية لكي تتطور الحياة وتنمو .

حلم ٤٩

قصدت المبني الأبيض الأنيق في صدر البهو جلست السيدة الجميلة واجتمعنا إليها فراحت تتحدث عن شركة الإنتاج الفني التي قررت إنشاءها . ورحبنا بالشركة وصاحبتها ومضي كل منا يدلي برأيه في الإنتاج والعمل ولم نختلف إلا حول الأجور . فقد كان رأيها أن يحدد الأجر تبعاً لاتفاق معها وكان رأيي الذي أيده البعض أن يحدد الأجر بنسبة ثابتة من تكاليف الفيلم أو المسرحية وأجلت المناقشة إلي جلسة أخري وقلت لزملائي إن الأخذ برأيها يجعلنا تحت رحمتها وإن النسبة توضح الأمر وتغلق الباب أمام الإنتهازية .

ودعتنا السيدة مع آخرين للعشاء وبعد العشاء أقيمت حفلة موسيقية وما ندري إلا والسيدة تتجرد من ثيابها وترقص عارية وبصورة غاية في الإثارة . واستقر رأيي بصفة نهائية . قررت أن أبتعد عن الشركة وصاحبتها .

تداعيات حلم ٤٩

(الأخلاق لا تتجزأ)

يثور جدال عصري حول موضع الأخلاق وحجمها ومكانتها في العمل والإنتاج والتعاملات التجارية ، فبعض الناس يري أن هذه الأنشطة تخضع لقانون المكسب والخسارة ، وتخضع للعرض والطلب ، وتخضع لمبدأ المنفعة والمصالح المتبادلة ، وبالتالي تصبح القواعد الأخلاقية في هذا السياق شيئا غريبا أو دخيلا ، فنحن هنا أمام شركة إنتاج فني وهناك اتفاق علي كل شيء إلا في نقطة واحدة وهي الأجور وهذه النقطة يمكن حسمها بالتفاوض والمساومة دون مشاكل كثيرة .

ولكن هنا يظهر الرأي الآخر ومفاده أن الأخلاق جزء هام في علاقات العمل أيا كانت طبيعتها وأن الأخلاق لا تتجزأ ، فالمرأة التي ترقص عارية وبصورة غاية في الإثارة (كما ورد في الحلم) لا يمكن أن يوثق بكلمتها في أي اتفاق ، وبالتالي لا يمكن التعامل معها حتي ولو كان هذا التعامل قريب الصلة بالرقص (إنتاج فني) وهكذا يقرر صاحب الحلم هذه الحقيقة أو هذا القانون الأخلاقي (واستقرر رأيي بصفة نهائية . قررت أن أبتعد عن الشركة وصاحبتها) .

حلـــم ٥٠

كنت أتطلع إلي إمرأة فاتنة تسير في الطريق فاقترب مني بجرأة وهمس في أذني أنها تحت أمري إذا أمرت . كان برّاق العينين منفراً ولكني لم أصده واتفقنا علي مبلغ وأصر علي أن يأخذ نصفه مقدماً فأعطيته النصف وضرب لي موعداً ولكن عند اللقاء كان بمفرده واعتذر بتوعك المرأة وكان علي أتم استعداد لرد المقدم ولكني صدقته وأبقيته معه وكان يقابلني في حلي وترحالي ويطالبني بالصبر. وخشيت أن تسيء هذه المقابلات سمعتي فأخبرته أنني عدلت عن رغبتي ولن أسترد المقدم ولكن عليه ألا يقابلني . ولم يعد يقابلني ولكنه كان يلوّح بها في أكثر الأماكن التي أذهب إليها .

وضقت به كما كرهته وقررت الإنتقال إلي الأسكندريه . وفي محطة سيدي جابر رأيته واقفاً وكأنه ينتظر .

تداعيات حلم ٥٠

(نداء الرغبة حتى النهاية)

يبدو أن نداء الرغبة في الإنسان لا ينتهي فهو يبدأ معه منذ الصبا والشباب ويظل متعلقاً بذلك النداء وآملاً في التحقيق والوصول ، وقد لا يحدث ذلك بناءً علي اعتبارات كثيرة ، ولكن الشخص نفسه لا يريد أن يقطع الصلة بهذه الرغبة بل يريد لهذه الصلة أن تظل قائمة بشكل ما (استبقاء المقدم في يد القواد أملاً في تحقيق اللقاء يوماً ما) ، حتي حين تواتيه الشجاعة أو يخيفه سوء السمعة لدي الناس فيقرر الإبتعاد بقرار ظاهري ، إلا أنه من الداخل يستبقي حبلاً موصولاً بهذه الرغبة (يستبقي المقدم في يد القواد وكأنه لا يريد أن يقطع الود تماماً – فيفهم القواد ذلك ويستمر في التلويح بالرغبة في كل مكان) .

وقد يضيق الإنسان بضعفه الحقيقي الذي يطارده فيقرر الإبتعاد عن مثيرات الرغبة والإنتقال إلي مكان أخر بعيد ينسي فيه رغبته وضعفه أمامها ، ولكنه يكتشف أنها سبقته إلي هناك (وضقت به – أي القواد – كما كرهته وقررت الإنتقال إلي الإسكندرية وفي محطة سيدي جابر رأيته واقفاً وكأنه ينتظر)

وهكذا يبدو – في رأي صاحب الحلم – أن رغبات الإنسان (أيا كان نوعها : نساء – مال – مخدرات) شيء يصاحبه طوال حياته وقد تشتد حدتها أو تضعف ولكنها تبقي مثيرة ومهددة له حتي النهاية .

حلم ٥١

وقف القطار دون وجود محطة فتساءلت صاحبتى عن السبب ولكنى لم أدر كيف أجيبها. وإذا بكتائب من الجيش وإذا بكتائب من الجيش تطوقه وتقتحمه شاهرة أسلحتها وساقت إلى الخارج كثيرين من ضباط الجيش الذين كانوا بالقطار وعددا محدوداً من المدنيين . وقبض على فيمن قبض عليهم فتركت صاحبتى منزعجة خائفة . وجدنا أنفسنا فى صحراء .أمرنا الجنود بخلع بدلنا والبقاء بملابسنا الداخلية، ولكنهم وضعوا العسكريين فى ناحية والمدنيين فى ناحية . وأخذنا نتهامس أننا ضعنا

وانتهى الأمر .

وجاء قائد الجنود ونادى علينا كل وحد باسمه .

وتساءل صوت منا .

– هل تقتلونا بلا محاكمة؟

فأجاب القائد بصراحة :

– الأمر لا يحتاج إلى محاكمة .

وتحرك القطار فتذكرت صاحبتى .

تداعيات حلم ٥١

(الحكم العسكري)

يحدث انقلاب عسكرى فجأة فتتغير كل الحسابات والتوقعات ويدخل الناس فى المجهول ، فالغلبة تصبح لمن يمسك بالسلاح ، والشك فى الجميع (مدنيين وعسكريين) هو السائد ، ويسقط القانون العادى وتحل محله أحكام طوارىء فيتولى القائد العسكرى إصدار الأحكام وتنفيذها بعيداً عن أى سلطة قضائية ، وهنا يجد الناس أنفسهم أمام خيارات غامضة ، ويتذكرون ويتحسرون على أيام كانوا يعيشون فيها حياة مدنية طبيعية . هذه هى الرؤية المباشرة والقريبة للحلم ، وقد نرى الحلم على أنه يمثل فيها حياة مدنية طبيعية . هذه هى الرؤية المباشرة والقريبة للحلم ، وقد نرى الحلم على أنه يمثل فكرة الحياة والموت فالقطار هنا يرمز لحياة والتوقف والإختطاف يشير إلى الموت الذى يأتى بغتة (توقف القطار دون وجود محطة) ، وأحكام الموت نافذة دون نقاش ولاتحتاج إلى أدلة أو حجج ، وإنما هو الموت أمر نافذ لا جدال فيه ولا نقاش ، وعند هذه اللحظة ربما يتذكر الإنسان حياته التى انتزع منها دون إرادة منه .

حلم ٥٢

دعينا إلى اجتماع فى حديقة الأزبكية . وهناك طرح علينا اقتراح بتكريم أستاذنا الجليل بمناسبة مرور مائة عام على مولده ولم يتحمس أحد ولكن لم يبد أحد منا اعتراضه. واتفق على أن يتم التكريم فى وزارة الخارجية التى قضى فيها زهرة عمره وأنجز أكبر مآثره .

وفى اليوم الموعود ذهبت مبكراً لأتفقد المكان واتجهت من فورى إلى البهو المختار . كان أنيقاً مهيباً كعادته ولكنه ازدان هذه المرة بوجود الفتيات الحسان اللائى عشقهن على مدى العمر .

جئن فى زى موحد ليقمن بالخدمات المطلوبة وقد اكتسين برونق الشباب الريان . خفق قلبى بشدة وتحيرت بين نداءات الحسن وجاء قلبى بأقصى قدراته من الحب . وجاش صدرى بالمعانى التى سألقيها فى خطاب التكريم .

تداعيات حلم ٥٢

(كل يغني لليلاه ..)

هذا الأستاذ الجليل عاش حياته الممتدة وكانت له أنجازاته ومآثره العلمية والإجتماعية التى استفاد منها تلامذته ، ومع هذا كانت فى حياته جوانب استمتاعية جمالية فى مستوى آخر من وجوده (الفتيات الحسان اللائى عشقهن على مدى العمر) . وليس هو فقط على هذا الحال ، وإنما نحن كبشر عموماً لنا مستويات وجوانب متعددة للإنجاز والعطاء والإستمتاع والإحساس بجمال الحياة وجمال البشر ، وبناءاً على ذلك يحدث هذا التداخل فى أكارنا وكلماتنا وسلوكياتنا ، فيختلط الشخصى بالعام ويختلط الذاتى بالموضوعى ويختلط العلمى المجرد بالجمالى الإستمتاعى ويختلط عطاؤنا لأنفسنا بعطائنا لغيرنا أو لوطننا (خفق قلبى بشدة وتحيرت بين نداءات الحسن وجاء قلبى بأقصى قدراته من الحب ز وجاش صدرى بالمعانى التى سألقيها فى خطاب التكريم) . وهذا الحلم يؤكد معنى التعددية والتى تصل إلى حد التناقض أو الغرابة فى احتياجات البشر وعطاءتهم وسلوكياتهم .

حلم ٥٣

سألت عن صديقى فقيل لى إن الموسيقار الشيخ زكريا أحمد يسهر فى بيته كل ليلة شادياً بألحانه حتى مطلع الفجر فقلت يا بخته ودعيت لحضور سهرة فذهبت إلى الحجرة الواسعة المزخرفة جدرانها بالأرابيسك .. ورأيت الشيخ زكريا جالساً على أريكة محتضنا عوده وهو يغنى «هو ده يخلص من الله» وفى حلقة جلست الأسرة نساء وزطفالاً وبينهما رجل معلق من قدميه وتحت رأسه على معبدة ذراع طست ملىء بمية النار .

ذهلت .

وضاعف من ذهولى أن الجميع كانوا يتابعون الغناء دون أدنى التفات إلى الرجل المعذب .

تداعيات حلم ٥٣

(تناقضات الحياة)

أحياناً تبدو لنا الأمور على غير حقيقتها فنتعامل مع الظاهر على الرغم من احتمالات تناقضه مع الباطن ، ونحن حين نفعل ذلك نميل إلى تبسيط الحياة حيث نريد أن نراها فى مستوى واحد أو ذات وجه واحد بينما الحياة فى حقيقتها مليئة بالمتناقضات الصارخة والأوجه المتعددة والمتباعدة ، ولكننا أحياناً لا نحتمل أن نراها هكذا فنستغرب ممن يعيشون هذه التناقضات كيف يعيشونها ، وكيف يتواءمون مع أنفسهم فى ظلها ، ففى اللحظة الواحدة وفى المكان الواحد تجتمع صور السعادة والشقاء .

حلم ٥٤

فى الحجرة المغلقة دار الحوار بينى وبين المذيعة وكان الحديث عن الموسيقى المحلية والأجنبية . وعند بعض مراحل الحوار أقوم للبيانو وأعزف عليه بعض الألحان . وكلما مر وقت فتح الباب ودخلت سيدة من أهل البيت لعلها أمى أو أخرى

فى منزلتها تقدم مشروباً وتذهب ولكن وضح لنا أنها كانت تراقب خلوتنا بريبة .

وضقت ذرعاً برقابتها فعزمت على تحديها بصورة غير مسبوقة فما أن سمعت صوت الباب وهو يفتح حتى اندفعت نحو المذيعة وضممتها إلى صدرى.

ولم أعد أبالى شيئاً كما لم أجد غضاضة ما . ولما انتهيت من التحدى كانتالمرأة قد اختفت من الحجرة بل ومن البيت كله .

تداعيات حلم ٥٤

(إنها مخاوفنا نحن)

كثيراً ما نخاف شيئاً ونعمل له ألف حساب ونعتقد أن هذا الذى نخافه شيء قادم من خارجنا ، وقد يداهمنا هذا الخوف ونحن لا نفعل شيئاً يستحق هذا الخوف أو يستدعيه فى العرف الإجتماعى (حديث عن الموسيقى المحلية والأجنبية يقطعه عزف على العود) ، ويظل هذا الخوف يعاودنا لأنه ليس مرتبطاً بما نفعله فى الظاهر وإنما يرتبط بما يدور فى نفوسنا من محظورات ، وحين تأتينا لحظة الشجاعة أو المجازفة أو التهور نكتشف اختفاء هذا الخوف من تلقاء نفسه .

حلم ٥٥

تحتدم المناقشة بين إمرأة ورجل وأبنائهما الخمسة حول حق الأم التى تجاوزت الستين فى الحب والحياة .

وتخطت المناقشة الأسوار فصارت حديث الجيران .

يقول البعض إنه حب زائف من عجوز وشاب فى سن أبنائها طمعاً فى المال الذى ورثته عن زوجها . ويقول البعض إنه ليس للإنسان إلا ما يقدر له من الحياة والحب خاصة حتى ولو أدى ذلك إلى دفع الثمن غالياً . وبدأ الأمر فى نظر الشبان الخمسة مصيبة لها. وكان ما كان من قتل الأم البائسة ووقف الأبناء الخمسة فى قفص الاتهام . وتوزعت التهمة عليهم من التنفيذ للمشاركة للتخطيط .

وكان التحقيق فيها والمرافعات حامية وإذ كانت مفرداتها الأمومة والبر

والشرف والسمعة والتقاليد ومازالت أذكر وجوههم وأقوالهم كما مازلت أذكر المرحومة أيام كانت تتحدى العمر والألسنة وتسير متبرجة تتبختر .

تداعيات حلم ٥٥

(صراع القيم)

تختلف القيم حسب زاوية نظرتنا إليها وحسب مدى استفادتنا أو خسارتنا منها، فالقيم لدى الأرملة تعنى حق كل إنسان فى الحب والحياة وحريته فى الإستمتاع بذلك ، والقيم لدى أبنائها الشبان الخمسة تعنى بقاء الأم لهم وحدهم وأن تعيش بقية عمرها حافظة لذكرى وود أبيهم ، والقيم لدى الجيران تصم سلوك هذه المرأة بالنزق والطيش والتصابى وعدم الوفاء لزوجها ، وهكذا تتصارع القيم وتتباين سلوكيات الناس بناءاً على رؤيتهم لقيمهم سلباً وإيجاباً . وأحياناً يتم حسم هذه الصراعات بإلغاء (قتل) أحد طرفى الصراع (الأم المتناقضة مع قيم أبنائها ومجتمعها) لكى تسير الأمور ولكنها فى الحقيقة لاتيسير لأن الإلغاء (القتل) سيخلق تناقضات قيمية أخرى تتصل ببر الأم والوفاء لها والرحمة بها وكيف يتفق كل هذا مع ما حدث من قتلها ، ومع هذا لا يغيب عن البال تصابى هذه الأم وأنانيتها وتبرجها وإغواءها للرجال بعد أن تجاوزت الستين . وعلى الرغم من أن الأبناء اعتقدوا أن إزاحة هذه الأم المتصابية سيمنحهم حياة هادئة ويزيل عقبة تقف أمامهم إلا أنهم يكتشفوا أن قتلها كبل حياتهم وانتهى بهم إلى السجن وأحدث حالة جديدة من عدم التوازن النفسى والأخلاقى والإجتماعى ، وهكذا أزمة الإنسان فى تعامله مع القيم المتعرضة والمتناقضة ، وكذا فى تعامله مع المصالح .

حلم ٥٦

غادرت البيت الكبير الذى ننتظر فيه كل رجل بذاته فلا يعرف أحد من الآخرين. وشعرت بشىء من الأمان بعد القلق .

غير أن شعور الأمان لم يدم طويلاً ، فخيل إلى أن آخرين يتبعوننى . ونظرت خلفى فرأيت عن بعد جملعة قادمة ملوحة بأيديها فى الهواء . فأوسعت

الخطى حتى أخذت فى الجرى . ورأيت فى الطريق بيتا وكان هناك من يدعوننى فهرت من فورى إليه ووجدت أهله وكأنهم عائدون من الخارج فهم ينظمون الأشياء ويزيلون عنها الغبار . ولم يدهش أحد لحضور أمامهم فنظروا لوجهى ودودين فى وجوههم وأحاديثهم وابتساماتهم رجع معهم ونسيت فى تلك اللحظة الزاحفين ورائى.

تداعيات حلم ٥٦

(الهجرة بحثا عن الأمان المفقود في الوطن)

قد نفتقد الأمان فى الوطن الأم وقد نشعر بالغربة فيه ، بل ونشعر بالتهديد يلاحقنا ، فنهرب إلى وطن آخر لا نعرف أهله جيدا ولم نولد على أرضه ولكننا نشعر بالأمان فى كنفه ونشعر بالمودة من أهله وقد ننسى أو نحاول أن نتناسى المخاوف والتهديدات التى كانت تطاردنا من الوطن الأم ومن أهلينا وذوينا . قد يكون هذا الأمر مستغرباً لأحادىّ الرؤية ولأصحاب القيم التقلدية ، ولكنه واقع الحياة، فقد يأتى الغدر والعدوان من القريب فى حين يأتى الأمان وتأتى المودة من الغريب .

حلم ٥٧

درت حول الحصن مرتين .. حصن حجرى نوافذه صغيرة كالثقوب ، ومن كل نافذة يطل وجه أعرفه بل وأحبه .. البعض طال غيابه والآخر رحل عن دنيانا من أزمنة مختلفة ، فنظرت بشوق وأسى وخيل إلى وجه يسألنى من أعماقه أن أحرره، ونظرت إلى باب الحصن الحجرى بلا أمل ، ثم ذهبت إلى دار السلطة وطلبت العون ، وغادرتها مجبور الخاطر قابضاً على عمود من الصلب ، ورجعت إلى الحصن ، ولوحت بالعمود فتهللت الوجوه واصطفت على الباب وضربت ضربة هائلة فتحطم وتهاوى ، واختفت الوجوه من النوافذ وتعالى هتاف فرحة وسرور ، ووقفت خافق القلب منتظر لقاء الأحبة بلهفة وشوق .

تداعيات حلم ٥٧

(التنوير والتحرير)

هناك الكثيرون من البشر الذين يعيشون فى سجن الإنغلاق والجمود والتحجر والظلام ، إلى أن يأتى شخص يحمل على عاتقه مهمة التنوير والتحرير للعقول والقلوب ، ولكنه يحتاج إلى دعم رمزى من السلطة القائمة (عمود من الصلب أخذه من دار السلطة) ، وهنا تكتمل الدائرة المكونة من رغبة المفكر وموافقة ومباركة وتأييد السلطة ، وهنا يعمل المفكر (أو المصلح) على كسر باب الحصن لكى يتحرر الناس من غفلتهم ومن جهلهم ومن خرافاتهم ومن جمودهم ، فالمفكر صاحب مبادرة فى التغيير والإصلاح .

حلم ٥٨

أخيرا جاء الترام الجديد وأصبح درة المواصلات فى حى العباسية وكنت من أول من استقلوه وجذبتنى إليه ألوانه الخضراء والبيضاء وزخارف جدرانه وفخامة مقاعده . كنت أقعد وأقف وأنا أتعجب من جماله ، وأقول لنفسى هذا متحف جميل لا ترام . ولكنى لاحظت مع ورود الزمن أن سلوك ركابه دون مستوى جماله بكثير.

والحق أنى رأيت فعالاً يندى لها الجبين خجلا . ويوم رأيت شابا من الخواجات ينقض على طفلة يريد أن يلتهمها ولكنى حلت بينه وبينها مذكراً إياه بأنها طفلة . وقبل أن يشتبك معى صعدت سيدة جميلة فى أواسط العمر فهرع الشاب إليها وهو يهتف «Love You» وقالت السيدة أنها راجعة لتوها من أوروبا ، حيث شاركت فى الاحتفال بظهور سيرتها الذاتية وعرضت عليها نسخة فرذا على الغلاف صورة إمرأة عارية تماماً !.

تداعيات حلم ٥٨

(التكنولوجيا والأخلاق)

قد ننبهر بمنجزات العصر من تكنولوجيا ومخترعات مفيدة ونافعة ، ولكننا حين نكتشف انفصال هذه المنجزات عن الأخلاق تصيبنا صدمة ونشعر بخيبة أمل، فنحن نفترض أن التقدم فى الصناعات يوازيه (أو يجب أن يوازيه) تقدم وتطور إيجابى فيا لسلوك الإنسانى ، ولكن هذا لايحدث غالباً فالإنسان الغربى الذى تفنن فى صنع الأشياء يفتقد هو ذاته لأبسط قواعد الأخلاق ، وأيضاً من يعجب بهذا النموذج الغربى تصيبه هذه الآفة فيفصل (أو تفصل) بين التقدم التكنولوجى والأخلاق . وهذا يعيدنا إلى فكرة أن الحضارة ليست فقط صناعات وزراعات وإنجازات مادية وإنما الحضارة هى قبل كل هذا سلوك إنسانى متحضر وراق .

حلم ٥٩

إنه عجيب لطول قامته .. عجيب فى سلوكه ، أما عن قامته فهى مثل مئذنة الزاوية، وأما عن سلوكه فإنه يعترض سبيل من يختار من أهل حارتنا ، ويحنى قامته المديدة حتى يوازى وجهه وجهه ، ويتفرس فى أساريره بإمعان ، كأنما يبحث عن سر دفين ، ويمضى بعد ذلك نحو المقصد حتى يختفى عند المنحنى ... وتلقاه الناس بدهشة واجمة وإمتعاض شديد ، بل إن أحدهم تبعه بعد ليكشف أمره ، ولما طالت غيبته خرجت جماعة من الأهل والجيران للبحث والإطمئنان لكنها رجعت مخيبة الرجاء .

عند ذلك جاء دور شيخ الحارة فنهض ليؤدى واجبه ورجع الرجل جريح الكبرياء ، وانقلب الحادث إلى حكاية على كل لسان ، وكثرت حوله الأفكار والظنون، ولكن بلا جدوى فطواه النسيان أو كاد .

وذات يوم كان شيخ الحارة يسامر أمام الزاوية إذ شعر بوجود يحل فى وجوده، ورأى أمره العجيب بل ولمح قبسا من سره الذى حير الناس ، وقرر فى الحال القبض عليه ، وأذاع ما عرفه من سره على الملأ .

وهم بالقيام ولكن خانته قواه جميعاً ، فلم يستطع أن يتحرك ولم يستطع أن ينطق .

تداعيات حلم ٥٩

(الأســـــرار)

فى الحياة كثير من الخبايا وازسرار لا نعلم كنهها ، وقد نندهش من هذه الأسرار أو نمتعض منها أو من جهلنا بها فنحاول كشف مجاهيلها ولكن دون جدوى فبعض هذه الأسرار ربما يكون أقرب للغيبيات (مثل مئذنة الزاوية) .

وقد يحاول البعض (شيخ الحارة) القفز باستنتاجات أو تفسيرات غير منطقية ، ولكن الواقع يكشف زيف ما قال وما ادعى فينصرف عنه الناس . وقد يعاود المحاولة ، ولكن فى هذه المرة بعيداً عن التفسيرات والاستنتاجات المنطقية ، وذلك من خلال عالم التصوف والكشف وعالم المعرفة القلبية والروحية ، وهنا قد تنكشف جوانب من هذه الأسرار ، ولكن هذا التكشف يحدث فى الوقت الذى يعجز فيه صاحبه عن الحركة أو الاستفادة منه ، أو أن معرفة السر تحمل تبعات ربما لا يقدر عليها الإنسان .

حلم ٦٠

دقت جرس الباب ففتح عن ثلاث فتيات يقينا أنى لا أعرفهم لكنى شعرت بأننى لا أراهن لأول مرة . سألت عن السيدة صاحبة الشقة فأجبن بأنها ما زالت فى الحج ولم يعرفن بعد ميعاد عودتها . وسرن بى إلى حجرات الشقة . وعند فتح كل باب أرى جماعة حول مائدة مستديرة غارقين فى مناقشة حادة ولكنى لم أعرف أى موضوع يناقشون من اختلاط الأصوات وتداخلها . ولم أرغب فى الدخول فى أى غرفة مفضلاً انتظار السيدة صاحبة الشقة . ولفتت نظرى إحدى الفتيات بأن السيدة سوف تتأخر بضعة أيام ومن يأسى أجبتها – بعد أن اشتركت فى المناقشات دون جدوى – أننى أفضل انتظار عودة السيدة .

تداعيات حلم ٦٠

(البحث عن الحقيقة بعيدا عن الجدل الديني العقيم)

يبحث الإنسان عن الحقيقة (وخاصة الحقيقة الدينية) ويدق بابها أملا فى الوصول إليها ، ولكنه يقابل ثلاث فتيات (ثلاث أديان أو ثلاث اتجاهات دينية) ، ويجد نقاشاً حاداً وجدالاً بين أتباع هذه الأديان (وعند فتح كل باب أرى جماعة حول مائدة مستديرة غارقين فى مناقشة حادة) أو أصحاب هذه الاتجاهات، وقد يقف الإنسان حائراً أمام ذلك (ولكنى لم أعرف أى موضوع يناقشون من اختلاط الأصوات وتداخلها) ، ويفضل – كما فعل صاحب الحلم – الإنتظار حتى يصل إلى الحقيقة فى جوهرها الأصلى حتى ولو تأخر هذا الوصول بعض الشىء (ولفتت نظرى إحدى الفتيات بأن السيدة سوف تتأخر بضعة أيام ومن يأسى أجبتها – بعد أن اشتركت فى المناقشات دون جدوى – أننى أفضل انتظاره عدة السيدة) . والحلم يصور موقف التأنى والصبر بغية الوصول إلى جوهر الحقيقة .

حلم ٦١

وصلتنى دعوة عشاء فى بيت قريب عزيز . ولما اقتربت من الباب رأيت أفواجاً من المدعوين يدخلون . فأدركت أن الدعوة عامة . ورأيت بين القادمين نخبة من جيل أساتذة وأخرى من جيل الزملاء . وتبادلنا التحية وبعض الكلام كان مما أجمعوا عليه أنهم يقيمون الآن فى قرية كرستوفر وقالوا الكثير عن جمالها وتفوقها على جميع القرى السياحية دخلنا وتفرقنا بين الموائد . وكانت جلستى أمام مائدة قصيرة عارية من كل شىء فلا مفرش ولاطبق ولا أدوات طعام وقبل أن أفيق من دهشتى رأيت شكوكو قادماً نحوى قابضاً على فخذة خروف محمرة . وسلمها لى يدا بيد وذهب وهو يضحك . صعقت واستأت ولكنى لم أر بدا من قطع اللحم بأصابعى لأتناول طعامى غير أننى كنت أفكر طيلة الوقت فى كوستوفر.

تداعيات حلم ٦١

(بين القديم والحديث)

قد يغرينا الجديد بجماله وتفوقه أو نرى تباهى الناس به وحديثهم الدائم عنه فننبهر به (كان مما أجمعوا عليه أنهم يقيمون الآن فى قرية كرستوفر وقالوا الكثير عن جمالها وتفوقها على جميع القرى السياحية) وقد يجعلنا هذا نشعر بالاغتراب ، وهنا تحدونا الرغبة فى العودة إلى أصولنا (وكانت جلستى أمام مائدة صغيرة عارية من كل شىء فلا مفرش ولا طبق ولا أدوات طعام) .. فنحن نستمتع بهذا القديم ونشعر بمذاقه وحلاوته وأصالته (وقبل أن أفيق من دهشتى رأيت شكوكو – فنان شعبى مصرى أصيل – قادماً نحوى قابضاً على فخذة خروف محمرة) ، ونستمتع بالتعامل معه بتلقائيتنا وبساطتنا دون تعقيد (ولكنى لم أرد بدأ من قطع اللحم بأصابعى لأتناول طعامى) ، ورغم كل هذا تظل تراودنا أحلام الجديد (غير أننى كنت أفكر طيلة الوقت فى كرستوفر) .

حلم ٦٢

أخيراً عثرت على الصورة القديمة العزيزة بين الأشياء القديمة . ولكن فرحتى لم تتم إذ سرعان ما تبين لى أن الصورة تهرأت بمرور الزمن عليها وطمست ملامح الأعزاء فلم يبق منها بقية تذكر .

وبقدرة قادر وجدت نفسى فى بهو مصلحة حكومية وبيدى ملف خدمة موظف يتتبع خطاى ويطالب بالإنصاف . وأدركت بخبرتى أن الموضوع من اختصاص إدارة المستخدمين .

وبحثت فلم أجد لها أثراً وفيما أمر أمام حجرة المخازن فتح الباب وخرج منه زميل توفاه الله منذ شهر . خطف الملف من يدى ورجع إلى المخازن وهو يؤكد أن الموضوع من اختصاصه . وأنسانى مظهره المهمة التى كانت تشغلنى .

تداعيات حلم ٦٢

(الكل يؤل إلي الموت)

يبدو حضور الموت قوياً فى الوعى الإنسانى ، وهو ليس مرادفاً للعدم أو الفناء، فعلى الرغم من أنه يبتلع الأحباب وصورهم وذكرياتهم (الصورة تهرأت بمرور الزمان عليها وطمست ملامح الأعزاء فلم يبق منها بقية تذكر) ، إلا أنه على الجانب الآخر مقر للعدل والإنصاف والمساواة بين البشر (وجدت نفسى فى بهو مصلحة حكومية وبيدى ملف خدمة موظف يتتبع خطاى ويطالب بالإنصاف وأدركت بخبرتى أن الموضوع من اختصاص إدارة المستخدمين . وبحثت فلم أجد لها أثراً ، وفيما أمر أمام حجرة المخازن فتح الباب وخرج منه زميل توفاه الله منذ شهر . وخطف الملف من يدى ورجع إلى المخازن وهو يؤكد أن الموضوع من اختصاصه) . وهكذا تتضح جدلية الموت والحياة وكأن كل منهما يشكل نصف الدورة الكونية فالموت يبتلع بعض مظاهر الحياة والحياة تخرج مرة أخرى من بين أحضان الموت . وإذا وصل الإنسان لهذه الحالة من الوعى الكونى العميق انصرف بذهنه وبوجدانه عن الكثير من مشاغل وتفاهات الحياة (وأنسانى مظهره المهمة التى كانت تشغلنى) .

حلم ٦٣

هذه أرض خضراء يخيط بها سور متوسط الارتفاع لكنه كاف لإخفاء ما يجرى داخله عمن فى الخارج ، وتنطلق من وسطها مسلة طويلة فى رأسها علم ، أما سطحها فيمرح بالشباب والحركة . خلت بادىء الأمر أننى فى ناد رياضى – ولكن بعد أن أمعنت البصر غلب على ظنى أننى فى سيرك ، فهنا جماعة تسير على أربع . وهنا فريق يتبادل أفراده الصياح والركل . وفريق آخر يتعاقب الحركة.. الشتائم ، أما البقية من الشباب فتشدو بألحان لم يسمع مثلها . وأردت أن أزداد علما فوجدتنى خارج السور فى مدينة كبيرة يشقها شارع عملاق تتكتل الجماهير على جانبيه خارج السور وهى تهتف متطلعة إلى العلم فى رأس المسلة . وأخيراً فتح الباب الكبير . وتهادى منه الموكب ، عربة إثر عربة . وفى كل عربة شاب يجلس

جلسة ملوكية ، ينظر إلى الناس من عل . ويرد تحياتهم باستعلاء واستكبار .

تداعيات حلم ٦٣

(مصر الحاضر والماضي)

تتمتع مصر بقدر من الخصوبة والجمال والخصوصية والمرج والاعتزاز الوطني والتاريخي (هذه أرض خضراء يحيط بها سور متوسط الارتفاع لكنه كاف لإخفاء ما يجرى داخله عمن فى الخارج ، وتنطلق من وسطها مسلة طويلة فى رأسها علم ، أما سطحها فيمرح بالشباب والحركة) . ومع هذا تموج الحياة فيها بالعشوائية والاضطراب والتناقضات تجعل الإنسان فى حيرة (خلت بادىء الأمر أننى فى ناد رياضى ، ولكن بعد أن أمعنت البصر غلب على ظنى أننى فى سيرك)، ففيها مظاهر للجهل (فهنا جماعة تسير على أربع)، ومظاهر للقبح والعدوان (الشتائم) وفيها مع ذلك مظاهر للفن والإبداع الجميل (أما البقية من الشباب فتشدوا بألحان لم يسمع مثلها) . وحين يترك الإنسان هذا الواقع الحاضر ويحاول التجول خارجه عبر مراحل التاريخ المختلفة بحثاً عن معرفة طولية ممتدة ورؤية لأسباب ما نحن فيه (وأردت أن أزاد علماً فوجدتنى خارج السور فى مدينة كبيرة يشقها شارع عملاق تتكتل الجماهير على جانبيه خارج السور وهى تهتف متطلعة إلى العلم فى رأس المسلة) فإنه يرى صورة الجماهير الطيبة (أو الساذجة) وهى مدفوعة بوطنيتها وانتمائها ولكنها محكومة بسلسلة من الحكام «الفراعين» الذين يعاملونهم باستعلاء واستكبار (وأخيراً فتح الباب الكبير وتهادى منه الموكب ، عربة إثر عربة . وفى كل عربة شاب يجلس جلسة ملوكية ، ينظر إلى الناس من عل . ويرد تحياتهم باستعلاء واستكبار) . وهكذا تتضح الصورة لمن يقرأ التاريخ جيداً ويتبين أن الاستبداد السياسى هو أصل هذه المظاهر العشوائية المضطربة فى حياة المصريين.

حلم ٦٤

من شدة الرعب تسمرت قدماى فى الأرض فعلى بعد ذراع منى شبت ثلاثة كلاب ضخمة متوحشة تريد أن تنقض على لتفتك بى لولا أن قبضت على أذيالها إمرأة باستماتة .

وإلى اليمين وقفت كلبة فى ريعان الشباب ، آية فى غزارة الشعر وبياضه ونعومته وكانت تشاهد ما يحدث فى قلق تجلى فى اهتزازات ذيلها القصير المقصوص .

وارتفع نباح الكلاب الثلاثة وتتابع كالرعد واشتعلت فى أعينها الرغبة المتأججة فى الفتك بى ولما تعذر عليها الوصول إلى استدارت فجأة ووثبت على المرأة وعند ذاك اقتلع الرعب قلبى وارتمت على الكلاب . أما الكلبة الجميلة فتطلعت لى مدة وترددت لحظة عابرة ثم ألقت بنفسها فى المعركة دون مبالاة بالعواقب.

تداعيات حلم ٦٤

(الأعداء والأصدقاء والأغلبية الصمتة)

فى المجتمعات البشرية نرى من يضمرون لنا العداء ويحاولون الفتك بنا (فعلى بعد ذراع منى شبت ثلاثة كلاب ضخمة متوحشة تريد أن تنقض على لتفتك بى) ، ونرى أيضاً من يحاولون الدفاع عنا بكل من أوتوا من قوة (لولا أن قبضت على أذيالها إمرأة باستماتة) .

وبين تهديد الأعداء ومحاولات الأصدقاء للحماية يقف فريق آخر صامتاً هادئاً ناعماً لا يرغب فى الدخول فى الصراع على الرغم من تعاطفه القلبى (وإلى اليمين وقفت كلبة فى ريعان الشباب ، آية فى غزارة الشعر وبياضه ونعومته ، وكانت تشاهد ما يحدث فى قلق تجلى فى اهتزازات ذيلها القصير المقصوص) .
وحين يحتدم الصراع ويحدق الخطر يخرج هذا الفريق الصامت عن صمته ويلقى بنفسه فى حلبة الصراع ، أو هكذا يتمنى الحالم .

حلم ٦٥

انقضى العام الدراسى وأعلن عن يوم الامتحان . ولم نكن فتحنا كتابا ولا حفظنا جملة توجب التفكير فيما ينبغى عمله . وثمة قلة كانت ما تزال تحتفظ بشىء من الاحترام لما هو معقول فقررت الامتناع عن حضور الإمتحان . أما الأخرى كانت مولعة بالعبث واللامعقول فانتهزت الفرصة المتاحة وعزمت على حضور الامتحان . وفى الصباح الموعود انتظما الصفوف ولبسنا أقنعة الجدية والاهتمام . وإذا برئيس اللجنة يقوم ويقول بصوت جهورى إنه سيوزع علينا ورقتين إحداهما تحوى الأسئلة والأخرى تحوى الإجابات الصحيحة . وذهلنا حقا فلم نتصور أن بين أساتذتنا من يفوقنا فى حب العبث واللامعقول .

تداعيات حلم ٦٥

(الفهلوة وعبثية النجاح الوهمي)

هناك من يحاولون القفز على قوانين الحياة باستخدام قوانين الفهلوة والتى يعتقدون أنها تتيح لهم الوصول إلى ما يريدون دون بذل جهد أو أخذ بالأسباب المعروفة . وهنا قلة ما زالوا يحترمون قوانين الواقع والعلاقة بين الأسباب والمسببات هؤلاء يحجمون عن المشاركة فى حالة الانتهازية الفهلوية السائدة والتى تتصور عبثاً إمكانية القفز على قوانين الحياة وتحقيق الأهداف بمجرد التمنى . والأخطر من كل هذا أن يغرق الزعماء والقادة فى هذا الوهم ويعيشونه ويبيعونه لأتباعهم فيغرق الجميع فى حالة من الإنهيار العبثى .

حلم ٦٦

تم التفاهم بينى وبين المالك ودعانى الرجل لمعاينة ما تم التفاهم عليه أرانى شقة ممتازة وزوجته الحسناء وابنها وهو طفل فى الثالثة . وطابت نفسى بما رأت وتحدد موعد الساعة التاسعة من صباح اليوم الثانى للتسليم والتسلم .

لكنى فى الحقيقة لم أستطع صبرا .

ودفعتنى قوة لا تقاوم للذهاب إلى الشقة . وأن الذى فتح لى الباب هو المالك نفسه . ولما رآنى ثار غضبه وصفق الباب فى وجهى بغضب ارتجت له الجدران وبت ليلة مسهدة أتساءل بقلق بالغ عن الصفقة والمصير .

تداعيات حلم ٦٦

(الطمع والاستعجال)

ربما نسعى لتحقيق هدف معين ولكن أعيننا الطامعة تمتد إلى خارج حدود هذا الهدف وتتمنى أشياء أخرى موازية أو مجاورة (ودعانى الرجل لمعاينة ما تم التفاهم عليه أرانى شقة ممتازة وزوجته الحسناء) . وتتمنى النفس الحصول على كل شىء (وطابت نفسى بما رأت) وتستعجل الحصول على ما تريد وما ترغب (ودفعتنى قوة لاتقاوم للذهاب إلى الشقة) ، ولكن هذا الطمع وهذا الاستعجال فى تحقيق الرغبات يأتى بنتائج عكسية فنفقد ما سعينا إليه ونعيش فى قلق دائم (ولما رآنى ثار غضبه وصفق الباب فى وجهى بغضب ارتجت له الجدران فبت ليلة مسهدة أتساءل بقلق بالغ عن الصفقة والمصير) . وقد عبر المثل الشعبى عن هذا المعنى بقوله :

«الطمع قل ما جمع» .. «يامستعجل عوقك الله» . وهذا المعنى مشهود فى الحياة حيث نرى اللهفة والطمع والاستعجال هى من أكثر العوامل الكامنة وراء فشلنا فى تحقيق أهدافنا ، ليس هذا فقط بل وراء حالة القلق المزمن الذى نعانيه .

حلم ٦٧

بناء كبير ستجده . فى الأصل كان مبنى الوزارة التى كنت موظفاً بها ولما رأيت الشباب يعود إليها - راودتنى نفسى على ارتيادها . فى الداخل قابلت نفرا من الزملاء القدامى فانشرح صدرى للقائهم وسرنا من حجرة إلى حجرة ومن ذكرى إلى ذكرى حتى بعثنا الماضى من مرقده . ومررنا بسلم واسع عجيب فصعدت من فورى إلى الطابق الثانى هناك رأيت شبابا كثيرين كلما رآنى أحدهم تجهم وألقى على نظرة مستنكرة انتفض قلبى وشعرت برغبة فى التبول . وبحثت هنا وهناك

حتى استقرت عيناى على لافتة ترشد إلى دورة مياه فى ممر بين الحجرات فهرعت إليه ولكنى وجدت عمالاً عاكفين على إجاز مشروع لم يتم تنفيذه لا يصلح للاستعمال رجعت من حيث أتيت . وسرعان ما اكتشفت بأنه لاسبيل إلى الفرج إلا بالعودة إلى الطريق .

تداعيات حلم ٦٧

(العلاقة بين الماضي والحاضر)

يبدو أنه لايوجد ثمة تناغم بين الماضى والحاضر ، فنحن نعيش ذكريات الماضى ونسعد بها ونألفها (قابلت نفراً من الزملاء القدامى فانشرح صدرى للقائهم) ، ثم فى لحظة نتوق لأن نعيش الحاضر ولكنه يتجهم لنا ونشعر بالغربة والقلق وعدم الارتياح فيه (رأيت شباباً كثيرين كلما رآنى أحدهم تجهم وجهه . انتفض قلبى وشعرت برغبة فى التبول) وننظر إليه على أنه ناقص وغير مفيد (وجدت عمالاً عاكفين على إنجاز مشروع لم يتم تنفيذه لايصلح للإستعمال) . ومع هذا الصراع الجدلى بين الماضى والحاضر لابد للحياة من أن تسير إلى مبتغاها (وسرعان ما اكتشفت بأنه لا سبيل إلى الفرج إلا بالعودة إلى الطريق) .

حلم ٦٨

ما أجمل هذا المكان . وأن سماءه وأرضه وما بينهما تتألق بلون الورد الأبيض . وجوه آية فى النقاء والصفاء . أما معجزته الحقيقية فهى أنه جمع أصدقاء العمر الأحياء منهم والأموات دون أن يثير ذلك دهشة أحد . فلا نحن سألناهم عما وجدوا فى العالم الآخر ولا هم سألونا عما حدث فى الدنيا عقب رحيلهم .

ولكنا انغمسنا جميعاً فى اللهو متمنين أن تدوم الحال غير أن الحال لم تدم إذ هبطت من السماء سحابة سوداء ، حتى ساد الظلام وفرق بيننا وانهمر مطر مثل الشلالات وتتابع البرق والرعد دون هدنة حتى بلغت القلوب الحناجر.

وهنا تسلل لأذنى أصوات بعض الأصدقاء .

قال الأول «أنها النهاية».

وقال الثانى «إنى لمحت عند الأفق قبسا من الفرج»

وقال الثالث «مهما يكن من الأمر فلا مفر من الحساب».

تداعيات حلم ٦٨

(الحياة والموت والحساب)

الحياة والموت وجهان للحقيقة وليسا ضدان ، فهما يجتمعان فى وعينا فى نفس اللحظة ، وفى داخل أجسادنا تتجسد ظاهرتى الحياة والموت فى صورة خلايا تتوالد وأخرى تموت بشكل متزامن دون عجب ، وكأن جدلية الحياة والموت بديهية من بديهيات الوجود فالحياة تخرج من رحم الموت والموت يخرج من رحم الحياة فهما «معاً» يشكان دورة الوجود (أما معجزته الحقيقية فهى أنه جمع أصدقاء العمر الأحياء منهم والأموات دون أن يثير ذلك دهشة أحد).

ثم يأتى وقت تتوقف فيه دورة الحياة ويحل الموت (هبطت من السماء سحابة سوداء حتى ساد الظلام وفرق بيننا) ليكون الحساب والذى يراه البعض نهاية ويراه البعض الآخر فرجاً وفرحاً.

ولحظة الموت والحساب هى لحظة مزلزلة (هبطت من السماء سحابة سوداء حتى ساد الظلام وفرق بيننا وانهمر مطر مثل الشلالات وتتباع البرق والرعد دون هدنة حتى بلغت القلوب الحناجر) ، وهى لحظة فاصلة بين حياة اللهو (ولكنا أنغمسنا جميعاً فى اللهو متمنين أن تدوم الحال) وبين حقيقة الخلود والحساب .

حلم ٦٩

هذه غابة تتوسطها هضبة هرمية الشكل . يصعد إليها من خلال ممرات حجرية مدرجة مزينة بصفوف النخيل وأحواض الزهور وجواسق العاشقين. خلوت إلى صاحبتى .

وسبحنا معا فى مناجاة غيبت عن وعينا الوجود . وبغتة انتثرت صاحبتى

واقفة وفى غمضة عين غادرت الجوسق . وقمت لألحق بها وأطمئن عليها فعترضنى صوت كالرعد ينطلق من مكبر صوت ويحذر الناس من وجود قنبلة زمنية ويدعوهم إلى مغادرة الهضبة بلا إبطاء ولا تردد . واندفع الناس نحو الممرات الحجرية وأنا أتلفت ، وجمعنا رجال الأمن فى موضع على بعد آمن . وبحثت عن صاحبتى فلم أعثر لها على أثر ترى أين أختفت؟ وهل ثمة علاقة بينها وبين الجريمة ؟ وألا يجرنى ذلك إلى الاتهام رغم براءاتى؟

وسمعت أقرب الواقفين إلى وهو يقول لصاحبته إن قلبه يحدثه بأن المسألة ليست أكثر من بلاغ كاذب . وسألت الله أن يصدق حدس الرجل ولكنى لبثت ممزقا من التفكير فى صاحبتى وتوقع الانفجار!

تداعيات حلم ٦٩

(الخطر المجهول والخوف والتوجس)

يبدو العالم وكأنه غابة مليئة بالمفاجآت والأخطار ، وتبدو مصر كذلك فعلى الرغم من النخيل والزهور وجلسات العاشقين فيها إلا أن الخطر المحدق يظهر فى أى لحظة ولايعرف مصدره على وجه التحديد فقد يكون صادراً من أحب الناس إلينا وقد يكون صادرا ممن لا يتوقع منهم صدور ذلك ، وفى هذا الجو يعم الخوف ويسود الشك والترقب .

حلم ٧٠

نادانى الشوق لرؤية الأحباب فتوجهت صوب الحى العتيق . وكالعادة قطعت الطريق مشيا على الأقدام حتى بدا لى البيت القديم وذكرياته . ولم أضيع وقتا فأخذت فى الصعود نحو الطابق الثالث والأخير . ولكن دهمنى إرهاق غير يسير عند منتصف السلم جعلنى أفكر فى تأجيل الرحلة لولا أن طبعى يأبى التراجع وبجهد جهيد واصلت الصعود حتى بلغت البسطة الثالثة . ومن موقفى الجديد لاح لى باب الشقة غارقاً فى الصمت والسكون ، فعلمت أنه لم يبق من السعود سوى عشر درجات هن ختام السلم لكنى لم أر درجة واحدة ، ووجدت مكانها هوة عميقة

فخفق قلبى خوفاً على آل البيت .

ومع أن الوصول بات متعذراً إلا أنى ألتفت إلى الوراء ، ولم أفكر فى التراجع بل ولم أفقد الأمل . وجعلت ألصق بصرى بالباب الغارق فى الصمت والسكون وأنا أادى ، وأنادى ، وأنادى من الأعماق .

تداعيات حلم ٧٠

(الهوة بين الطبقات والصمم السلطوي)

لم يعد الوطن كما كنا نعرفه ونحن إليه من قبل فقد انقطعت العلاقة بين طبقاته وتآكلت الطبقة المتوسطة أو تلاشت ، تلك الطبقة التى كانت حلقة الوصل بين الطبقات الدنيا والطبقات العليا (ولكنى لم أر درجة واحدة ووجدت مكانها هوة عميقة فخفق قلبى خوفاً على آل البيت) ، وأصبحت الطبقات العليا (ومعها السلطة) بعيدة عن الوصول إليها ولايوجد ثمة حوار بينها وبين من دونها وكأنما انقطعت الاتصالات بين الأغنياء والفقراء وبين الحكومة والشعب ، ولم تعد الحكومة تسمع لنداءات الشعب المتكررة (وجعلت ألصق بصرى بالباب الغارق فى الصمت والسكون وأنا أنادى وأنادى وأنادى من الأعماق) . وهذه لمحة رقيقة من صاحب الحلم ونداءا وعتابا يوجهه إلى الطبقات الأعلى وإلى أصحاب السلطة أن ينصتوا لنداءات الشعب ويستجيبوا لها .

صدر للمؤلف

١ – العلاج النفسي في ضوء الإسلام ١٩٩٠ – دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع .

٢ – الصحوة الإسلامية (دراسة نفسية) ١٩٩٢ – دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع .

٣ – العلاج الشعبي والطب النفسي : صراع أم وفاق ١٩٩٤ – أورفو للطباعة.

٤– المدمن بين مستويات اللذة والألم ١٩٩٥ – أورفو للطباعة .

٥– المخدرات والجنس ١٩٩٥ – أورفو للطباعة .

٦– الصحة النفسية للطفل ١٩٩٩ – القبطان للطباعة والنشر .

٧– النوم والأحلام ٢٠٠١ – دار اليقين للنشر والتوزيع .

٨– سيكولوجية الصهيونية ٢٠٠١ – البيطاش سنتر للنشر والتوزيع .

٩– مستويات النفس ، ٢٠٠٢ – الملتقي المصري للإبداع والتنمية .

١٠– سيكولوجية الدين والتدين ٢٠٠٢ – البيطاش سنتر للنشر والتوزيع .

١١– الصحة النفسية للمرأة ٢٠٠٤ – البيطاش سنتر للنشر والتوزيع .

١٢– المريض النفسي بين الجن والسحر والحسد ٢٠٠٥ – الجمعية الإسلامية العالمية للصحة النفسية .

١٣ – فن السعادة الزوجية ٢٠٠٦ – مكتبة الأنجلو المصرية.

١٤ – الصحة النفسية للطفل (طبعة ثانية حجم كبير) – مكتبة الأنجلو المصرية .